وسئل رضي الله عنه
في تفسير القرآن الكريم

فى المراد من أسماء الله الحسنى

إن أسماء الله الحسنى ألفاظ من القرآن الكريم ، وهى دلالات على الله سبحانه وتعالى تهدى إلى ما يتصف الله به من وجوه الكمال فهى مباركة فى نفسها من حيث هى أسماء للذات المقدسة ، وهى مباركة بالنسبة لقارئها من حيث هى هداية وإرشاد للمسلم فى عقيدته ومن أجل ذلك كان الاعتقاد فى بركاتها ، سواء كانت متلوة مقروءة أو محمولة مكتوبة : اعتقاداً سليما :

وعلى هذا فإنه لا مانع للمسلم من أن يحتفظ بأسماء الله الحسنى مكتوبة محفوظة ملفوفة فى قطعة من القماش الطاهر ، وذلك للتبرك بها ، كما يحتفظ الإنسان بآيات من القرآن الكريم ملفوفة فى قماش طاهر ، ولم يمنع أحد من المسلمين أن يكتب الإنسان القرآن ، أن يكتب آيات منه أو يكتب أسماء الله الحسنى ويحملها متبركاً بها .

فإذا كُتبت أسماء الله الحسنى ولُفت لفًّا متقناً أو جلِّدت فى عناية ثم علقت فى رقبة الطفل فلا مانع من ذلك ، خصوصاً أن ذلك يدل دلالة واضحة على تقديس أسماء الله الحسنى وتقديرها واحترامها ، وعلى الرغبة الطيبة فى تعويد الأطفال على تقديسها واحترامها وتقديرها .

وما من شك فى أن أسماء الله الحسنى إنما أخبرنا الله بها لتدل أولا وبالذات على الكمالات الإلهية ولتهدينا إلى العقيدة السليمة ، بالنسبة لله سبحانه ، وذلك لا يتنافى أبداً مع كتابتها وحملها وتعليقها فى رقبة الأطفال إيمانًا ببركتها ، وتقديساً لها وحُبًّا فيمن دلت عليه سبحانه .

وقد ورد فى الأخبار أن سيدنا خالد بن الوليد كان يتبرك بشعرات من شعر رسول الله ﷺ ، يحتفظ بها فى عمامته فالتبرك بأسماء الله الحسنى لا مانع منه .

فى أفضل وسيلة لحفظ القرآن الكريم

أفضل الطرق وأيسرها لحفظ القرآن الكريم هى أن يتفهم القارئ معانى الآيات التى يقرؤها ، وبوجه إجمالى فظلال المعانى فى ذهنه تساعد على بقائها ، وسهولة حفظ الجمل المعبرة عنها ، ثم يبدأ الطفل – عادة – بالسور القصيرة والأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم ، يضاف إلى ذلك أن يقرأ المُحفِّظ الآيات أمام تلاميذه ، فالقراءة الجيدة تعود التلاميذ على حسن النطق وحسن الترتيل ، ولا يكلف التلميذ بحفظ آيات كثيرة حتى لا يثقل عليه حفظ ما يكلف به .

*أما الفوائد التى تعود على حافظ القرآن فأهمها المعلومات التى يستفيدها من آى القرآن وأحكامه . وقصصه ومواعظه ، فقد قلت إنه ينبغى للمتعلم أن يلم بالمعانى الإجمالية للآيات التى يحفظها ، ثم هو يستفيد قدرة على التعبير الأدبى ، ويحسن الاقتباس من آيات القرآن ، والقراءة بعد كل هذا عبادة ، يستطيع الحافظ أن يؤديها فى أى وقت وفى أى مكان .

فى حرمة مسّ المصحف للمحدث

إن قراءة القرآن على غير وضوء جائزة ما دام القارئ طاهراً من الجنابة ، وقد ورد أن سيدنا عمر رضى الله عنه كان يقرؤه على غير وضوء ، فلما سئل فى ذلك أجاب بما يفيد أنه جائز ، وأما حمله على غير وضوء ، فقد أجاز أبو حنيفة رضى الله عنه ، ذلك إذا كان بغلافه ، أى إذا كان مُغلّفاً داخل كساء .

ولقد اختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء : فالجمهور على المنع من مسه . ويقول الإمام القرطبى :

« واختلفت الرواية عن أبى حنيفة ، فقد روى عنه ، أنه يمسه المحدث حدثاً أصغر ، وقد روى هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره » .

ويقول الإمام القرطبى : وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم طاهراً أو محدثاً حدثاً أصغر .

أما مس الصبيان للمصحف فالأظهر الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن . وبعد فإنه مما لا شك فيه أن مس المصحف على طهارة كاملة من الأمور التى يحرص عليها المؤمن كلما أتيحت له الفرصة لذلك ، وهو فى هذا يسير مع الوضع الصحيح لتكريم المصحف واحترامه . بيد أنه تحدث ظروف لا يتمكن الإنسان فيها من الوضوء لسبب من الأسباب ، وتكون فى الوقت نفسه الفرصة متاحة للقراءة فى المصحف ، وفى هذه الحالة للإنسان أن يأخذ برأى الأئمة الذين أباحوا مسه على غير وضوء . ذلك خير من أن يترك فرصة متاحة للقراءة والثواب .

فى احترام الأوراق المكتوب فيها القرآن

القرآن نور أنار الله به طريق السير للمؤمن ومنة امتن بها عليهم . . وقد طالبهم باحترامه والقيام بحقوقه وحذرهم من التفريط فى احترامه فضلا عن امتهانه ، قال تعالى : (إنه لقرآن كريم .فى كتاب مكنون .لا يمسه إلا المطهرون)

والذى يبيع بعض الحاجات فى ورقة بها آية من آيات قرآنية مرتكب لمنكر ، والذى يبيع من الورق ما فيه آية قرآنية لمن يبيع فيه ويمتهنه مرتكب لمنكر وهكذا .

ولا يعتبر الامتهان غير مقصود إلا إذا أغفل المسلم أو ظن أن ما فى الورق ليس قرآناً فإذا ما تمزقت أوراق مصحف أو بعض أوراقه بادر الإنسان بحرقها إذا لم يتيسر له حفظها فى مكان أمين ، أو إلقاؤها فى البحر ، لأن الماء سيزيل آثار الكتابة وتتحول حينئذ إلى ورقة عادية سرعان ما تتفتت .

والمقصود فى هذا كله المحافظة على القرآن الكريم بما يجب نحوه من احترام وإذا كان الله تعالى قد منع غير المتطهرين من مس المصحف أو شىء من القرآن ، فإن امتهان القرآن من أكبر المحرمات ، وقد كان سبب الوبال لبعض الأفراد الذين استهانوا بحرمته فمزقهم الله شر ممزق .

فى مسّ المصحف المكتوب باللغة اللاتينية بغير وضوء

الأمر فى مسّ المصحف المكتوب بالحروف اللاتينية . لا يختلف عنه بالنسبة للمصحف المكتوب بالحروف العربية .

غير أن أمر كتابة المصحف بالحروف اللاتينية لا يتم إلا بفهم المعنى المراد من كل آية قرآنية وصياغته باللغة المترجم إليها ، وليست ترجمة المعنى كترجمة النص ، فترجمته قد تكون مستحيلة فى كثير من الحالات ، أما ترجمة المعنى فهى ميسورة للمترجم ، وفهم المعنى لآيات القرآن يختلف باختلاف الباحثين إيجازاً وإطناباً وفهماً للمراد كله ، وقصوراً فى فهم المراد تارة أخرى .

وعلى ذلك فالمصحف العربى يختلف كثيراً عن المصحف اللاتينى من حيث إن المصحف العربى نص المنزّل من عند الله لا يحتمل غيره ، أما المصحف اللاتينى فإنه ترجمة للمعنى وليس نصًّا ، أعنى أنه كتاب تفسير لا قرآن .

لذلك فمسه بغير وضوء لامنع منه .

فى فضل البسملة

حسب البسملة فضلا أن افتتح الله بها كل سورة من سور القرآن ما عدا سورة « براءة » ، وحسبها فضلا أن كان رسول الله ﷺ لا يدعها فى كل كتاب أرسله إلى من دعاهم إلى الإسلام ، وحسبها فضلا أن ذكرها الله عَزَّ وجل فى سورة النحل ، حاكياً عن سليمان عليه السلام أنه صدر بها كتابه إلى بلقيس : قال تعالى :

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو علىَّ وأتونى مسلمين) .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يدع البسملة فى كل شأن من شئونه وحث عليها مبيناً فضلها فقال :

« كل أمرٍ ذى بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أجزم ، وفى رواية أبتر ، وفى أخرى أقطع . . والمعنى لا بركة فيه » .

وذكر فى بداية العمل من إثارة الإذعان بأن هذا الأمر يكون ابتداؤه ويكون تمامه بالله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به جل جلاله .

ومن آثارها بركة هذا العمل كما نص الحديث السالف الذكر عن رسول الله ﷺ ، ولقد قالها نوح عليه السلام وهو يركب سفينته وقد بلغت الشدّة نهايتها حينما فتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدر ، وصارت الأمواج تتلاطم كالجبال ، فكانت (بسم الله) أماناً لنوح ومن معه فى السفينة ، ولعل فى هذا بلاغاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فى استحباب سماع تلاوة القرآن

إن سماع القرآن خير جزيل ، وإن تلاوته خير جزيل أيضاً ، وتلاوته بصوت مسموع أفضل من سماعه ، وذلك لأن تلاوته بصوت مسموع فيها – فى آن واحد – استعمال اللسان والآذان .

والتالى للقرآن يمكنه أن يقف عندما يمر على آية استغفار يستغفر ، وعندما يمر على آية توبة يتوب ، وعندما يمر على آية عذاب يتضرع ويطلب النجاة .

ويتيسر له أن يعيد القراءة متدبراً متأملاً ، وأن يقف عند بعض الآيات متفهماً ، وكل هذا

لا يتيسر فى نوع من الكمال بمجرد السماع ، ولا يمنع عدم المهارة بالقرآن من أن يقرأه الإنسان ، فرسول الله ﷺ يقول فيما رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها :

« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ، ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

ويقول ﷺ فيما رواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

وهذا الحديث نص فى القراءة لا فى السماع .

فى معنى كلمة آمين

إن كلمة آمين معناها : اللهم استجب ، وهى ترد عقب كل دعاء .

إنها ترد عقب الفاتحة بعد قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين) .

وروى الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما : رضى الله عنهم أجمعين : أن رسول الله ﷺ قال : إذا قال الإمام « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقولوا آمين ، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفى رواية للبخارى إذا قال أحدكم آمين ، وقالت الملائكة فى السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه .

ولكن هذه الكلمة تختص بالصلاة ، فعن أبى مصبح المقرائى فيما رواه أبو داود قال : كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى رضى الله عنهما وكان من الصحابة يحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال اختمه قال آمين ، مثل الطابع على الصحيفة ، قال أبو زهير النميرى أخبركم عن ذلك : خرجنا مع رسول الله ﷺ ليلة نمشى فأتينا على رجل ألحّ فى المسألة : أى ألحّ فى الدعاء – فوقف النبى ﷺ يستمع منه ، قال النبى أوجب أن ختم ، قال رجل من القوم بأى شىء يختم ؟ فقال : بآمين ، فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب – أى قبل الله دعاءه ، فانصرف الرجل الذى سأل النبى ﷺ فأتى الرجل فقال اختم يا فلان بآمين وأبشر . .

أما كون الإمام لا يجهر بها فذلك لأنها ليست قرآناً ، وأما جهر المأمومين بها فإنه ليس واجباً وهم بالخيار إن شاءوا جهروا وإن شاءوا أسروا .

فى نزول القرآن فى ليلة القدر وهل كان جملة أولا

يرى بعض العلماء -- ومنهم الشيخ محمد عبده – أن المراد بنزول القرآن فى هذه الليلة ابتداء نزوله ، مستدلا بما قاله الشعبى – المراد من نحو أنزلناه وأنزل فيه القرآن : الابتداء بإنزاله .

وعلى هذا المعنى فإن القرآن ابتدأ الله سبحانه إنزاله فى ليلة القدر ، ثم توالى إنزاله بحسب الظروف والملابسات ، وبحسب حكمة الله سبحانه وهو الحكيم الخبير . أما كيف انقسمت السور القرآنية إلى المكيّة والمدنية . فإن السبب فى ذلك هو اختلاف أماكن نزول القرآن ، فقد استمر نزول القرآن على الرسول ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة : قال تعالى : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزلناه تنزيلا) وقال : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) ومن الآيات ما نزل بمكة ، ومنها ما نزل بالمدينة ، فسمى ما نزل بمكة بالمكىّ ، وما نزل بالمدينة بالمدنىّ ، واستخلص العلماء لكل سماته وخصائصه ومجال البحث فيه ، وإن فى تمييز المكىّ من المدنىّ ومعرفة مكان النزول يعطى صورة واضحة عن اهتمام المسلمين بكتاب الله وبكل ما يتعلق به : حيث لم يكتفوا بحفظه بل عرفوا ملابساته وما أحاط به من ظروف .

فى الوحى

يمكن الشخص العادى أن يرى سيدنا جبريل عليه السلام ، فليست رؤيته بمستحيلة ، وليست رؤيته وعدمها ، خاضعة لرغبة شخص أو عدمها ، وإنما مرد ذلك كله إلى الله عزَّ وجل ، وعلى النحو الذى يريده الله سبحانه ، حسب قدرة الرائى ، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ، ليس كآحاد البشر ، وقد رأته السيدة مريم عليها السلام ، وليست بنبية ، ورآه أناس كثيرون فى حياة النبى ﷺ وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . . . شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . إلخ . الحديث فى أول صحيح مسلم وكان هذا الذى رآه الصحابة هو جبريل .

وليس معنى أنه يُرى أن كل من يراه يوحى إليه وحى تشريع ، لا . . . لأن وحى التشريع انتهى بوفاة رسول الله ﷺ ، وإنما تعبر الرؤيا مناماً أو يقظة بالمعنى الذى يتناسب وحال الرائى من بشارة أو إنذار أو تقرير أو نحو ذلك والوحى الخاص بقوله : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . .) الآية .

هو وحى الرؤيا المنامية ، ولم يرد فى شرح الآية نص يكشف ماهية الوحى الذى كان ، ولعله وحى إلهام . والآية الكريمة محتملة لذلك .

فى محاولات أعداء الإسلام لتحريف القرآن

المحاولات لتحريف القرآن الكريم مستمرة ودائمة . . منذ عهد قديم ، وقد تمثلت أولا فى الخروج بتفسيره عن هدى الدين ، وصرف المسلمين عن هدايته بأخبار موضوعة تبلبل المفاهيم وتصرفها عن روح الدين ، كما هو ملاحظ فى بعض التفاسير من الإسرائيليات . والحشو .

ومن ناحية ثانية فقد حرفت بعض الطوائف معانى القرآن الواضحة الظاهرة إلى معان باطنة لا تمثل إلا ما يهدم الدين تحت دعوى الخصوصية والفهم الذى لا يقبل الخطأ ونحو ذلك ، وتمثلت هذه المحاولات : فى القضاء على لغة القرآن . . وتوجيه الطعنات إليها ثم إلى القرآن ثالثاً : بتغيير رسمه وكيفية نطقه .

وآخر هذه المحاولات تغيير القرآن الكريم بحذف بعض الكلمات منه أو تغيير شكل الكلمة حتى يتغير المعنى تبعاً لذلك . وطبع مصاحف محرفة طبعات أنيقة ونشرها على أوسع نطاق .

وعلماء المسلمين يحفظون القرآن فى صدورهم ويكشفون ما استطاعوا عن هذا التزييف .

والأزهر يمارس نشاطاً كبيراً فى مجال القضاء على كل محاولات التحريف فتقوم لجنة المصحف التابعة لمجمع البحوث الإسلامية باعتماد ما تراه صحيحاً من المصاحف قبل الطبع . .

وتفحص المصاحف المزورة وتصدر نشرات عنها وعن طبعاتها وتنبه البلاد الإسلامية إلى خطرها .

وتقوم حكومة مصر على أساس توجيه هذه اللجنة بمصادرة كل مصحف غير مطابق لنص القرآن الكريم .

وسيقوم المجمع بطبع مصحف نموذجى ونشره على أوسع نطاق بحيث يعتبر أساساً لمقارنة غيره به (٥١) .

ومقارنة لكل ما يمكن أن يصدر من طبعات محرفة ، أنشئت إذاعة القرآن الكريم بمصر ، تتلو

---

(٥١) كان الأمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه أمينًا عامًّا لمجمع البحوث الإسلامية وقت صدور هذه الفتوى ، وقد تم فى عهد توليه مشيخة الأزهر طبع هذا المصحف ، ونُشر على أوسع نطاق .

القرآن آناء الليل وأطراف النهار بعدة قراءات ، تيسر للمسلم أن يراجع مصحفه على أساس قراءتها .

وبعد فالله سبحانه وتعالى : قد تكفل بحفظ القرآن ، قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وعلماء الإسلام يحفظون القرآن وعندهم من النسخ المضبوطة الكثير . . ومن الممكن الرجوع إليهم فيما يشك فى تحريفه .

والأمل كبير فى أن تتكاتف الحكومات الإسلامية أمام هذا المظهر الخطر من محاولات تزييف الدين والتراث فى أقدس مخلداته ، وهو القرآن الكريم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فى التوبة كما وردت فى القرآن

لقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة على مصراعيه أمام المذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم فى الذنوب ولم ييئسهم من رحمته فقال تعالى :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون) .

وقال سبحانه وتعالى : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال أيضاً : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) . وغير ذلك من آيات القرآن الكريم التى ترغب فى التوبة وتحث عليها .

وفى الحديث الصحيح : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل .

وفيه أيضاً : إن الله فتح بابه للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها . فمن أسرف على نفسه ثم تيقظ ضميره يلزمه أن يرفع أكف الضراعة والندم على ما فرط منه فى حق مولاه ، وليبك على خطيئته ، ويعزم على عدم الرجوع إليها ، ويرد المظالم إلى أهلها ويؤدى الفرائض التى فاتته بشروط التوبة ، إن فعل ذلك قبل الله توبته وعفا عن ذنبه وخطيئته وجعله فى زمرة عباده المقبولين .

أما إن أخل بشروط التوبة وتاب باللسان ولم يرد المظالم ولم يقلع عن المعصية فإن توبته مردودة عليه نعوذ بالله من ذلك .

فى حادث الإفك

إن من المبادئ الإسلامية الأصيلة الأخوّة الإسلامية : (إنما المؤمنون إخوة) ، « والمؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

ومن أجل ذلك فإن الذين يسيرون فى طريق معارض وهم الذين يحبون أن تنتشر الخصال القبيحة فى الذين آمنو أعد الله لهم عذاباً أليماً فى الدنيا وفى الآخرة ، والله يعلم ما انطوت عليه السرائر وأما أنتم فلا تعلمون من ذلك شيئاً .

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وهذه الآية الكريمة وما يتلوها إنما هى تعقيب على ما اقترفه البعض من الخوض فى حديث الإفك ، لقد أخذ البعض يخوض فى عرض الرسول ﷺ ولولا فضل الله ورحمته بالمجتمع الإسلامى إذ ذاك لمس الذين خاضوا فى الإفك والمشايعين لهم والساكتين على بهتانهم عذاب عظيم .

ويستمر الله سبحانه فى التعقيب على الحادث تربية للمؤمنين فيحذرهم سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، وذلك أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر إنه لا يوجه إلى خير ، ولولا أن الله سبحانه قد رسم طريق الهداية واضحاً لا لبس فيه رسمه فى العقيدة ، وأساسها التوحيد ممثلا فى : إياك نعبد وإياك نستعين ، ورسمه فى التشريع وأساسه العدالة ، ورسمه فى الأخلاق وأساسها الرحمة – ولولا فضل الله ورحمته على عباده لولا كل ذلك ما زكّى منهم أحداً أبداً ، ولكن يأخذ بيد من يشاء فيزكيه ويطهره من الإثم بالتوبة والغفران ، وهو سبحانه السميع لكل من التجأ إليه متضرعاً ، متجهاً إلى تزكية نفسه ؛ العليم بالمخلصين فى الإنابة إليه .

ولقد روى الإمام البخارى وغيره أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان ينفق على مسطح لقرابته وفقره فلما خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها قال أبو بكر : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً فنزل القرآن الكريم ناهياً أولى الفضل وذوى السعة أن يقسموا على عدم الإنفاق على ذوى القربى

والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، ونصح الله المؤمنين بالعفو والصفح وخاطبهم قائلا :
ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم : فلما سمع أبو بكر رضى الله عنه هذا الخطاب قال : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد نفقته على مسطح .

فى إمكان الإعادة بعد العدم

وجود الشىء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه من عدم ، وإن كان لا يوجد حد بالنسبة لله ، شىء أسهل وشىء أصعب هذا الدليل الموجود فى الآيات فى كلمات قليلة .
(قُلْ يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ظهور الشىء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس .
وإذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى .
وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو :
إن الشىء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق : هذا الدليل موجود فى آية :
(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون) . وقد انتفع به الأشعرى فى إثبات إمكان البعث .
خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن .

فى منهج التشريع القرآنى

يشرع القرآن أحياناً : فى صورة مجملة – لبعض المسائل التى تتغير أساليبها بتغير الزمن ويترك للمجتمع تحديد الأساليب والطرق التى تناسب الحالة التى عليها المجتمع والتى تحقق الفائدة من التشريع ، وذلك كما فعل فى الشورى مثلا ، فقد أمر بها الله سبحانه ، ثم ترك سياستها وكيفية تحقيقها لتؤدى الهدف منها إلى المصلحين فى المجتمع وولاة الأمور فيه .
أما المسائل التى تكون عادة مثار نزاع فى المجتمع أو بين أفراد الأسرة الواحدة فإن القرآن قد فصلها تفصيلا ، ووضحها سافرة لا لبس فيها وذلك كالميراث مثلا :
لقد بين القرآن الأنصبة محددة فى مختلف الحالات والظروف ، فأبان نصيب الزوجة مثلا حينما

يكون للمتوفى أولاد ، ونصيبه حينما لايكون له أولاد ، والأم والبنت ، والأخت وهكذا .

وهذا معلوماً من الدين بالضرورة . فمن جحده إنكاراً ، أو جحده غير معترف بعدالته ، أو جحده مفضلا غيره من التشريعات عليه ، فإنه يكون بذلك قد خرج من الملة الإسلامية .

والواقع أن الانحراف فى موضوع الإرث يأتى من طائفتين :

طائفة المتفرنجين الذين يريدون أن يسووا بين الرجل والمرأة فى الميراث ويعتبرون أنفسهم من المجددين المتطورين ، وهم بهذا يعتبرون أنفسهم أحكم من الله سبحانه ، وأحكم تشريعاً منه وهم بهذا خارجون على الإسلام وعلى رب الإسلام .

والطائفة الثانية : هى طائفة العقليات والمنازع الجاهلية التى وصل بها احتقار المرأة أن كانت تدفنها حية فى العصر الجاهلى .

إن هذه العقليات الجاهلية لم تمت بعد ، إذ لا يزال أثرها حيًّا للآن برغم تحطيم الإسلام لها وإنكاره عليها وهدمه لمبادئها ، إنها لا تزال حية فى نفوس الذين لم تتشبع نفوسهم بروح الإيمان والذين لم يغمرهم نور الإسلام ، ولقد صور القرآن موقف هذه العقليات بالنسبة للمرأة أبلغ تصوير فى قوله تعالى :

(وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وهؤلاء يجحدون كل حق للمرأة ويحرمونها من الميراث برغم وضوح حكم الله سبحانه وتعالى فى وجوب إعطائها حقّها وهم بذلك خارجون على الإسلام وعلى رب الإسلام .

وسواء كنا بصدد المتفرنجين أو بصدد العقليات الجاهلية فإن الواجب أن يخضع الإنسان لحكم الله أحكم الحاكمين ، وأن يوقن بأن كل خروج عليه إنما هو اتباع للهوى وسير وراء نزعات الشيطان .

وإن القرآن ليصف أمثال هؤلاء الذين يخرجون على قوانين الله سبحانه ، بأنهم كافرون وبأنهم ظالمون ، وبأنهم فاسقون . وقانا الله السوء وهدانا لاتّباع أوامره واجتناب نواهيه .

فى حكم النسخ فى القرآن

يقول الشيخ جمال الدين القاسمى :

قد تقرر أن النسخ فى الشرائع جائز ، موافق للحكمة وواقع : فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التى كان عليها إبراهيم ، وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة ، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة لأن الأحكام العملية التى تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر ، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان ، فالحكيم العليم شرّع لكل زمن ما يناسبه .

ولقد فسر صاحب كتاب محاسن التأويل فى تفسير القرآن قول الله تعالى :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) بقوله :

ما نبدل من آية بغيرها كنسخنا آيات التوراة بآيات القرآن (أو ننسها) أى نذهبها من القلوب كما أخبر بقوله : (ونسوا حظا مما ذُكِّروا به) (نأت بخير منها)

وعلى النسق فى تفسير هذه الآية سار الشيخ محمد عبده ، وكثير من رجال الفكر فى العصر الحاضر وهم يرون أن نسخ القرآن بالقرآن لم يحدث ، ويتابعون فى ذلك أبا مسلم بن بحر الأصفهانى المفسر الشهير الذى يقول :

ليس فى القرآن آية منسوخة ، ويشرح كل ما قالوا إنه منسوخ على وجه من التخصيص أو التأويل .

وهذا الرأى الذى نراه ، وعلى ذلك فإن من ينكر النسخ فى القرآن الكريم لا يكون كافراً ، والرأى المشهور لدى المسلمين إنما استند على الخصوص إلى آية النسخ فى القرآن الكريم ، وهى آية يمكن أن تفسر بنسخ الشرائع لا بنسخ آيات القرآن بعضها لبعض .

فى الذين قاموا بتشكيل القرآن الكريم بعد النبى ﷺ .

نزل القرآن على الرسول ﷺ بلسان عربى مبين ، وكان الرسول ﷺ يقرؤه كما أنزل عليه وكما سمعه من جبريل ويسمعه الصحابة منه ، فيحفظونه كما سمعوه . وهم بسليقتهم العربية لا يلحنون .

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ودخل فى دين الله غير العرب واختلطت اللغة وبدأ اللحن فى الكلام العربى أمر الحجاج بتشكيل القرآن خوفاً من اللحن . فالحجاج فى عهد بنى أمية هو أول من

أمر بتشكيل القرآن ونقطه ، ومن الروايات المشهورة أن أول من قام بتشكيل القرآن ونقطه إنما هو أبو الأسود الدؤلى بأمر عبد الملك بن مروان ، وقد ذكر الإمام السيوطى رواية تقول : إن من الذين اشتركوا فى نقط المصحف وشكله الحسن البصرى ويحيى بن يَعْمُرُ .

فى الحافظون لحدود الله

الحفاظ على حدود الله سبحانه : هو الالتزام الكامل بأداء ما أوجبه الله على خلقه والعمل بمقتضاه أمراً كان أو نهياً يقوم بتلك أفراد الأمة : حكاماً ومحكومين إذ كل راع مسئول عن رعيته .

وحدود الله تبدو فى ظاهرها عبارة عامة لكنها مع ذلك ذات مفهوم محدود ، جوهره الالتزام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويرسم الله سبحانه وتعالى صورة من الصور لهذه الحدود أو بعضها فى أول سورة : النساء : فمطلعها أمر بالتقوى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) . . . ثم بعد ذلك أمر آخر . يقول الله : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم . . .) ثم هناك أحكام أخرى .

يقول تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً)

ثم يقول : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا) .

ثم بين سبحانه أحكاماً فى القسمة والميراث يقول تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) .

وقوله : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . .) إلخ الآيات . ثم أشار سبحانه إلى كل ذلك بقوله سبحانه (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) .

وتضمنت هذه الآية جزاء الحافظين لحدود الله ، أما العصاة الذين تعدوا الحدود وطغوا وبغوا فجزاؤهم فى الآية التالية مباشرة .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)

إنه الجزاء الوفاق للحافظين لحدود الله والمعتدين لها .

فى دعاء الصالحين

بظهر الغيب

روى مسلم عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل :

وروى مسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول : دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل :

بل إن نفس الرسول ﷺ صح عنه أنه طلب من عمر رضى الله عنه أن يشركه فى الدعاء فقرت بذلك عين عمر .

وغير ذلك كثير من الآيات والأحاديث ، إذن دعاء الصالحين نافع سواء كان ذلك الدعاء من الأفضل للفاضل كما حصل من الأنبياء لغيرهم أو كان من المفضول للأفضل كما حصل من عمر للنبى ﷺ ، وكما حصل من المؤمنين الذين حكى عنهم ذلك فى سورة الحشر (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) فدعاء الصالحين مستجاب وبركة .

وأما وجودهم والجلوس معهم فنافع وبركة ، والأدلة على ذلك لا تحصى ولا تعد من الكتاب والسنة والحوادث .

فى الفرق بين العزم والهم

العزم هو : توطيد النفس على المعصية والقصد إليها بالقلب والشعور . والهم : إمرار فكرة المعصية بالفكر من غير استقرار .

وفى الحديث الصحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك . . فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة .

وعلى هذا : فمن دارت المعصية بخاطره دون عزم عازم ورغبة أكيدة فلم يعملها خوفاً من الله وإيثاراً للصواب كتب له حسنة لأنه جاهد نفسه فتغلب على الشر فيها . .

ومن عزم عليها وتأكدت رغبته فيها كتبت عليه سيئة ، فإن لم يعملها وتغلبت مجاهدته كتبت له حسنة . .

ومن المعلوم أن من عزم على المعصية فمنعه منها مانع من غير نفسه كخوف فضيحة أو عقوبة قانون ، أو ما إلى ذلك لا حسنة له ، وعليه إثم نيته التى نواها . . .

فى التخلق بأخلاق الله الجمالية

يقول الله تعالى : لملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ولقد استحق خلافة الله فى الأرض لأن الله سبحانه خلقه وفيه الاستعداد للتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه ، ومن المعروف أنه مطلوب من كل شخص أن يتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه وتعالى ، فالله مثلا سمى نفسه الرحمٰن ، بل جعل هذه الصفة تالية للاسم الكريم ، أعنى اسم (الله) فقال سبحانه : (قل ادعو الله أو ادعو الرحمٰن) .

ومطلوب من الإنسان أن يكون رحيماً ولقد هيئ لأن يكون رحيماً إذا شاء ، والله سبحانه كريم ومطلوب من الإنسان أن يكون كريماً وفيه الاستعداد لأن يكون كريماً ، وهكذا خلق الله الإنسان مستعدًّا للرحمة والكرم والمغفرة والعفو والسلام والعلم والسمع والبصر وغير ذلك من صفاته سبحانه وتعالى ، والله سبحانه خالق ومصور ومبدع وفى مقابل ذلك بالنسبة للإنسان العمل والكدح فى الأرض التى جعلها الله ذلولا له ، وسخرها له ، بل سخر الكون كله من سمائه وأرضه وما بينهما ليستخدم كل ذلك بالعلم والعمل ، واستحق الإنسان خلافة الله فى الأرض إذن بهذه الصفات الخيّرة وبالعمل المتواصل .

أما إذا لم يكن كذلك بأن كان شرّيراً أو كان كسولا فإنه يكون قد تخلى عن الرسالة التى هيأه الله لها وهى رسالة الخلافة فلا يكون أهلا لها .

فى خلق آدم ليكون خليفة الله فى السموات والأرض

بين الله سبحانه وتعالى أنه إنما خلق آدم للأرض وذلك قبل أن يصور وينفخ فيه الروح ويبرز فى عالم الوجود فقال للملائكة :

(إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وقد سئل الحسن رحمه الله عن : آآدم للسماء خُلق أم للأرض ؟

فقال : ما هذا ؟ للأرض خلق .

فقال السائل : أرأيت لو اعتصم ولم يأكل من الشجرة ؟

قال : للأرض خلق ، فلم يكن بد من أن يأكل منها .

ومن أجمل الآراء فى قصة آدم وأعمقها رأى الإمام أبى الحسن الشاذلى : لقد شعر أبو العباس المرسى فى يوم بضيق شديد لم يعلم له سبباً ، فذهب إلى أبى الحسن الشاذلى ، فلما رآه قال مباشرة :

آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام ، ثم نزل به إلى الأرض ، والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة ، لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزله الله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة .

وأنت أيضاً لك قسط من آدم كانت بدايتك فى سماء الروح ، فى جنة المعارف ، فأنزلك الله إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

أما أين نزل فذلك غيب لا يتحدث عنه التاريخ الموثوق به ، وقد كان يكفى ذلك للكف عن بحث العلماء فى هذا الموضوع ولكن العلماء بحثوا فيه واختلفوا ، شأنهم فى ذلك فى بحث كل ما لم يرد فيه نص صحيح . .

فى معنى اليتيم

يقول تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . .)

واليتيم : هو : من مات أبوه وهو دون البلوغ ذكراً كان أو أنثى ، لأنه فى حاجة إلى العطف والرعاية .

أما بعد البلوغ فيكون قد زال عنه هذا الاسم ، لأنه قوى واشتد هذا هو اليتيم بوجه عام .

أما اليتيم الذى يستحق الصدقة فهو اليتيم الفقير الذى لا مال له من ميراث ، ويستوى فى ذلك الذكر والأنثى . .

فى قصة قوم تُبَّع

قوم تبع الذين جاء ذكرهم فى القرآن هم : حِمْير باليمن ، وقد فصل القرآن ذكرهم فى سورة سبأ ، وكانت حمير كلها ملك فيهم رجل سموه تبعاً ، كما يقال قيصر لمن ملك الروم ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وفرعون لمن ملك مصر ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس .

وتُبَّع هذا المذكور فى الآية : كان رجلاً صالحاً خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه واتسعت مملكته وكثرت رعاياه ، فاتفق أن مر بالمدينة المنورة فى أيام الجاهلية فلاينه أهلها بأن حاربوه فى النهار وجعلوا يقدمون له الزاد بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم .

ولما مر بالكعبة أراد هدمها فلما أخبر بما لها من حرمة تركها وكساها كسوة حسنة وقد اعتنق اليهودية دين موسى عليه السلام قبل ظهور المسيح وتابعه قومه فى ذلك حتى إذا مات عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام وكان ما كان مما قصه الله تعالى عن أهل سبأ وتبدل خيراتهم إلى نقم . .

أخرج الحاكم عن عائشة قالت : كان تُبَّع رجلا صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه .

وروى أحمد بسنده عن سهل بن سعد عن الرسول ﷺ قال :

« لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم « أى أسلم وجهه لله ولم يشرك به شيئاً من خلقه »

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى اضطراب الأخبار فى شأن تُبَّع حيث لم ترد تفصيلاتها عن طريق موثوق يعتدّ به ، ولم تثبت الكشوف التاريخية الصحيحة شيئاً مهمًّا فى هذا المجال .

وكل ما يجب علينا أن نؤمن به هو صلاح هذا الرجل وفساد قومه كما بينته عائشة رضى الله عنها .

فى حكم قراءة القرآن على الأموات

قراءة القرآن على الأموات ليست واجبة إلا فى صلاة الجنازة فقط ؛ أما عند القبر فقد استحبها عبد الله بن سيدنا عمر رضى الله عنهما بعد الدفن مباشرة ، واستحبها الشافعى كذلك ، فقد ورد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : أحب أن يقرأ عند القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخواتيمها ، وقال الإمام الشافعى : أحب أن يقرأ عند الميت بعد الدفن ختمة كاملة .

وذلك لما يرجى من تنزل رحمة الله فى المكان الذى يتلى فيه كتابه وهذه الرحمة يستفيد بها الأحياء والأموات .

وإذا ترك المسلم قراءة القرآن على الأموات فليس عليه عقوبة ، وقد كان النبى ﷺ يزور المقابر كثيرًا ويسأل الله تعالى لأهلها الرحمة والعافية ، والدعاء للأموات مستحب سواء زرت المقابر أم لم تزر تأسياً برسول الله والخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات .

ولقد دعا لهم سيدنا إبراهيم بالمغفرة كما حكى الله عنه بقوله .

(ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) .

فى تفسير أوائل السور

الحروف التى بدئت بها سور القرآن مثل (آلم) و (آلر) و (طسّمّ) و (حٰم) (ص) قيل إنها أسماء للسور التى بدئت بها ، وقيل إنها أقسام أقسم الله بها على أن ما اشتملت عليه السور التى بدئت بها حق لا ريب فيه ، وقيل إنها أسماء لله تعالى وقيل إنها نزلت للتحدى بها ، وإن القرآن الكريم مؤلف من مثل الحروف التى يؤلفون منها كلامهم . وإن على الذين ينكرون أنه من عند الله أن يأتوا بمثله والله أعلم بمراده .

آراء فى فواتح السور

منها : أنها أسماء للسور المبدوء بها ، فـ (طسّمّ) اسم للسورة المبدوء بها ، وكذلك (حم) ونحوها ، غير أن بعض هذه الأسماء مشترك من عدة سور مثل (حمٓ) و (آلم) و (آلر) . . .

ومثل هذه يكون التمييز فيها بمشخصات كأن يقال : حمٓ ، الأحقاف ، أو حمٓ فُصِّلت ، وهكذا .

وقيل : إنها أسماء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها والغرض منها إفهام المخاطبين أن ما يتلى عليهم من الكلام إنما تركب من الحروف التى يتخاطبون بها ويتداولونها ، وإما لإظهار شرفها وفضلها إذ هى مبنى كتبه المنزلة .

وموقف المؤمن من أمثال ذلك ينبغى أن يكون موقف الراسخين فى العلم الذين يقولون (آمنا به كلٌّ من عند ربنا) .

فى مكانة الأنبياء

إنها فرصة طيبة للحديث فى المسائل التى تتعلق بأنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

والمبدأ الأول : هو أن الأنبياء معصومون فقد اصطفاهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، وتخيرلهم الآباء والأجداد والأمهات والجدات لقد اختار لهم الأسر ، المنبت وانظر إلى القرآن الكريم يقول عن عيسى عليه السلام قبل ميلاده .

(ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيًا)

لقد كان أمراً مقضيًّا قبل ميلاده .

وتكفل الله بهم بعد ميلادهم ، إنه سبحانه يصطفيهم لنفسه ويربيهم على عينه ويبعد عنهم كل أذى ويبعدهم عما يشين ويعصمهم عن كبريات السيئات قبل بعثتهم ويعصمهم عن كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم .

تلك هى العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى ضوئها يجب أن يسير المفسر ، وعند حدودها يجب أن يقف ، وعلى هذا فإن الأمر فى الآية ظاهر :

لقد اختصم اثنان من بنى البشر كما يختصمون كل يوم فى هذا الأمر أو ذاك فذهبا إلى داود عليه السلام يعتقد الظالم أنه بلسانه الطلق ، وذكائه القوى يستطيع أن يلبس على داود عليه السلام فيبدى الباطل فى صورة الحق ويظهر الظلم فى صورة العدالة ويعتقد المظلوم أن حقه واضح برغم كل ما يزيفه خصمه ، لقد كان النزاع على غنم ، والنعاج هى الإناث من الضأن ولا مجال لغير ذلك ولا يتأتى أن نصرف اللفظ إلى غير معناه .

وحكم بينهم داود عليه السلام قائلا : (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) ، ثم بين

الطبائع البشرية فقال : (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض) ، ثم استثنى طائفة قليلة حددها بقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) ، ولكن ثم تُختتم الآية بقوله تعالى : (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه ، وخرَّ راكعاً وأناب) وما هى الفتنة التى ظن داود عليه السلام أن الله فتنه بها ؟

والفتنة هى الملك ، وهى هذه السعة من السلطان والجاه والسيادة يقول تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وهل يسير بعض المفسرين على هذا النسق ؟

نعم : إن المحققين من المفسرين يرون هذا الرأى وعلى رأسهم القاضى عياض ، والإمام ابن كثير الذى يقول : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات لم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه .

فى تفسير الربع الثانى : من الجزء الأول من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يُضِلُّ به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يُضِلُّ به إلاّ الفاسقين (٢٦) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل ويُفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون (٢٧) كيف تكفرون بالله وكُنتُم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (٢٨) هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم (٢٩) وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون (٣٠) وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألمْ أَقُلْ لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكٰفرين (٣٤) وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها

رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٣٥) فأزلّهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٣٦) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم (٣٧) قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم منى هُدى فمن تبع هُداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣٨) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خلدون (٣٩) يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأَوْفوا بعهدى أُوفِ بعهدكم وإياى فارهبون (٤٠) وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإيّاى فاتقون (٤١) ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون (٤٢) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين .)

إن التفسير لكل ربع من القرآن الكريم ، فى مجال التحريك والتحرك بالقرآن العظيم ينبغى أن يرسم صورة متكاملة . . لأن كل ربع فى تقسيم القرآن ، إنما يعطى معنى من المعانى التى تكتمل بها الصورة فى كل سورة .

وهذا الربع الثانى من سورة البقرة يبدأ بداية مثيرة ، إلا أنها مرتبطة بالموضوع الرئيسى الذى يتناوله هذا الربع . وأعنى بذلك تحديد علاقة الإنسان بربه وبقصة بدء الخليقة فى ذلك الحوار القدسى بين الله سبحانه وتعالى والملائكة ثم بينه جلت حكمته وبين آدم عليه السلام وإبليس . . لقد علم الله سبحانه آدم عليه السلام الأسماء كلها وهيأه بذلك ليكون خليفة الله فى أرضه لكى يعرف ابتداء مصادر العلم ومبادئ الانطلاق بهذا العلم . . وبعد أن وقف آدم على هذه الأسرار وتلك المداخل أصبح مهيئاً للخلافة وحينما اجتاز آدم الاختبار طلب الله من الملائكة أن تسجد لآدم :

وينتهى الأمر بما تشرحه الآيات تفصيلا من موقف إبليس الذى وصفه الله بالكفر والعصيان ولكن آدم عصى أمر ربه - لقدر وتقدير - تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وهنا الفرق الكبير والبون الواسع بين آدم الذى تاب فتاب الله عليه ، وبين إبليس الذى عصى ولم يستغفر ولم يتب وإنما استمر فى كفره وعصيانه .

والغريب أن هذا الربع يبدأ باستهلال غريب ، أخّاذ يثير التساؤل ولكن حينما تربطه بمحتوى ما جاء به الربع تكتمل فى أذهاننا الحكمة من أن يورد سبحانه هذه الآيات فى مدخل هذا الربع . إنه تعالى يريد أن يوضح مسبقاً أن الكافرين سوف يشككون ويتذبذبون ولن يقروا أو يسلموا ، وأنهم سينتقدون أى شىء حتى فى هذا الأمر البسيط - ضرب المثل بالبعوضة - وهو لا يعدو أن يكون سبيلا وأسلوبا من الله عز وجل لتبسيط الأمر بتلك الأمثال ليقربها إلى عقل الإنسان وإدراكه

وحسه ، ويقرر سبحانه بوضوح وجلاء أن المؤمنين يعلمون أنه الحق من ربهم حتى ولو كان الأمر مثل بعوضة فما فوقها . (أما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) والأوصاف المباشرة لهؤلاء الفاسقين فى هذا الموقع هى :

١ – ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

٢ – يقطعون ما أمر الله به أن يُوصل .

٣ – يفسدون فى الأرض .

وبعد هذه المقدمة الأخّاذة والمثيرة يبين الله لنا أن المؤمن وهو الذى يعلم أنه الحق – يصبح مطمئنا لأمر الله وحكمه ، واثقاً فى الكلام المنزل من عند ربه . فمن مقومات الإيمان الأولى ما توضحه الآية (والذين آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) زالت من قلوبهم الريبة والشك . أما الذين كفروا فهم فى ريب دائم وتشكك مستمر ، فإذا كان أمر التشكيك يصل إلى هذا المثل (البعوضة) فما بالنا بقضية الخلق . . ولهذا فإن الله سبحانه يسأل هذا السؤال الذى يتضمن الدهشة والاستغراب وعدم تصور التصديق حينما يسأل (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سمٰوات وهو بكل شىء عليم) وأظهر سبحانه وتعالى صفة العلم عند المدخل إلى بدء الخليقة .

وهكذا نرى ونتعلم أن الله سبحانه وهو يبنى الإنسان من خلال الآيات كان لابد أن يبدأ بعد تعريف الإنسان بأنواع الناس الذين سيلتقى بهم مسار القرآن – كان لابد أن ينتقل إلى تحديد علاقة الإنسان بخالقه منذ بدء الخليقة لكى يعرف كل إنسان قدره ومكانته فليس آدم عليه السلام فى ذلك إلا كل إنسان ، ومن يستشعر هذا المعنى لابد أن يستشعر مدى تكريم الله لشخصه وما ميزه به من علم استوجب سجود الملائكة لآدم . . فإذا كان التصرف على مستوى هذا التكريم يتكافأ مع هذا العلم الذى علمه ربه إيّاه استطاع الإنسان أن يعرف فضل الله عليه وتكريمه إيّاه .

وكما حرص الربع الأول على تحديد وتعريف أنواع الناس الذين سيجرى التعامل معهم فإن الربع الثانى حريص على تحديد علاقة الإنسان أولا بخالقه ثم بالملائكة قبل أن يدخل مع القرآن – فى الرسالات . . ينبغى أن تكون هذه العلاقة واضحة ومستقرة رحمة بالإنسان عندما يعرف مصادر القوة ، ويعرف مصادر العلم ، ويعرف مصادر السلطة ومِمَّنْ يستمد الإنسان كل هذه المساندة . فمن أكبر النعم التى تفضل الله بها على الإنسان أن يشمله برحمته ، وأن يزوده بعلمه وأن يسخر له ما فى الأرض جميعاً وميزة العلم فى حد ذاتها من أكبر الدعامات لتحقيق الرحمة للفرد فى تنمية

هذا العلم الذى وضع الله به آدم عند نقطة أساس يمكن أن ينطلق منها إلى منابع الغيب بلا قيد وبلا حد فى نطاق ما يأذن به رب هذا الوجود ، فالحوار يؤكد كرامة الإنسان ويؤكد دور الإنسان فى عمارة الكون ومسئوليته عن هذا العلم الذى أودعه الله فيه والفتوى يشار إليها بأنه علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وهنا يضاف إلى العلم الحكمة . وقد يعطى لنا العلم ولكن الحكمة هى التدبير المحكم وهى صنعة الله ، وإن الذين يشقون فى هذه الحياة هم الذين يريدون أن يعرفوا الحكمة وراء كل شيء ومن وراء كل تدبير ، لأنهم يعيشون فى الظاهر وسبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمها كان مقدار علمك فإنه فوق كل ذى علم عليم ، إن الله لا يحب أن يسأل لماذا ولا كيف . . أما إذا تفضل الله على عبد من عباده فآتاه الحكمة فما لا شك فيه أنه قد أُوتى خيراً كثيراً وينتهى الحوار بالكلمة الفاصلة التى يجب أن ينتهى إليها كل إنسان حتى لا يتعب .

(قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

وبهذا تحدد الموقف ليلتزم كل امرئ حدّه ومكانه من هذه القاعدة الكلية رحمة به حتى لا يضل ، ورحمة بالمجتمع حتى لا يضيع ، ورحمة بالبشرية حتى تهتدى إلى الصراط المستقيم .

إن كل تشريف لا يتم إلا بقدر ما يؤدى المقابل له من تكاليف ، فما استحق آدم سجود الملائكة إلا بعد أمرين :

العلم ، ثم اجتياز الاختبار بنجاح :

وهنا أصبح مُعدًّا لمباشرة الخلافة بكل ما عليها وبكل مالها ، وطالما أن هناك مسئولية فلابد أن تتأكد المسئولية بالتزام الأوامر ، والانتهاء من النواهى ، وإلا كيف يبنى الالتزام ؟ وهنا أيضاً يطلب من الملائكة السجود فتسجد ويمتنع إبليس الذى أبَى واستكبر وكان من الكافرين .

(وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)

فطالما هناك تكليف . كان هناك التزام أوامر وهناك نواه . . وبهذا يكون التكريم عليه أعباء والتزامات إذا أديت كان التكريم هو الجزاء وإذا لم تُؤدّ ينتهى بنا الأمر إلى ما تعرض له الربع الأول فى شأن الكافرين والمنافقين .

وكانت أول تجربة لآدم يخرج فيها عن أمر ربه لنعرف أن الخطأ جائز وممكن إلا أن يكون تحديًا

وأن الله تواب رحيم . . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وبعد أن أمره الله بالهبوط إلى الأرض كفل له الرزق والاستقرار إلى حين لقائه سبحانه وتعالى :

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هُدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تأكيد جديد لما جاء فى الفاتحة بأن هناك رسالات وهناك رسلا ستأتى سيتبعهم من أنعم الله عليهم وسيعصاهم من غضب الله عليهم . وسينحرف بها من ضل عن الطريق ، أى أننا على مسار قراءة القرآن سنرى أمثلة لمن أنعم الله عليهم وأمثلة لمن غضب الله عليهم . . ومن حادوا عن الصراط المستقيم وكيف كان عملهم وكيف كان جزاؤهم فنتعلم من هذه العظة ونتدارك أنفسنا بالخير والعمل الصالح ، وننتهى عند آية مخالفة الله عز وجل ثم ينبه إلى الذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون توضيحا للجزاء فى لقاء المخالفة وفتحاً لباب التوبة كما كانت توبته على آدم بعد هبوطه تبياناً كاملاً لأساس التصرف بين الإنسان وربه وبين الإنسان والملائكة تعريفاً بإبليس ومن يمثلونه على الأرض حتى نتقى الوقوع فى حبائلهم ، وينتهى هذا الربع بالكلام ولأول مرة عن بنى إسرائيل وذلك بمزيد من التفصيل بالنسبة للذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم بالنسبة لبنى إسرائيل فى مجال إعداد المسلم الذى يسعى القرآن لبنائه ينتهى هذا الربع بتحصين المسلم فى مجال بنائه وإعداده لمواجهة أنواع البشر الذين سيلتقى بهم على هذه الأرض ، ويكون من بين من يحذرنا الله منهم بنواسرائيل وهذا التحذير يأتى من خلال خطاب موجه إليهم لعل وعسى أن يعود إليهم عقلهم ويعود إليهم إيمانهم السابق حينما فضلهم الله على العالمين فجحدوا نعمته ونقضوا عهده فيخاطبهم قائلا (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإيّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) وكأنما فى خطابه هذا لهم يوضح تصرفهم بشأن التوراة التى بدلوا فيها وعدلوا ليشتروا بها ثمناً قليلا (وإياى فارهبون) ينبههم إلى أن يرهبوه وحده ثم يشير إلى صفة تعانى منها البشرية كلها من تصرف يهود حتى إنها أصبحت علامة مميزة لهم فى مجال أخبارهم ودعايتهم ، وأعلامهم فيقول : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) . بالمعنى العام كونوا مع الناس ولا تنحرفوا كما انحرف إبليس .

النواهى :

- لا تنقض عهد الله من بعد ميثاقه .
- لا تقطع ما أمر الله به أن يوصل .
- لا تفسد فى الأرض .
- اتبع هدى الله (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

أوامر لبنى إسرائيل وهى أوامر خاصة لها صفة العموم :

١ – اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم .

٢ – أوفوا بعهدى أوف بعهدكم .

٣ – إيّايَ فارهبون .

٤ – (آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به) (القرآن)

٥ – (لا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون) .

٦ – (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

٧ – (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) .

فى تفسير قول الله تبارك وتعالى :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين[٥٢]) فهل إبليس من الملائكة أو من الجن . . وهل هو من الشياطين .

° ° °

معرفة جنس إبليس من المعتقدات التى كلفنا بها ، ومع ذلك فإن معرفة جنسه متوقفة على الخلاف فى كونه من الملائكة أوْ لا : وهو قبل معصيته لأمر الله لا يُعلم حاله بطريق ثابت ، وكل ما قيل فى ذلك فهو منسوب إلى بعض الصحابة ، أما بعد الإخبار بمعصيته ففى معرفة جنسه رأيان :

الرأى الأول : أنه من الملائكة . واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة منها :

(١) ظاهر الاستثناء فى قوله تعالى : (فسجدوا إلا إبليس) وهو استثناء متصل يدل على أنه من الملائكة .

---

(٥٢) سورة البقرة آية (٣٤)

(ب) أنه لو لم يكن من الملائكة لما كان أمر الله لهم بالسجود متناولا له ، ولو لم يكن متناولا له استحال أن يكون تركه للسجود إباء معصية ، ولما استحق العذاب ، وحيث حصل ذلك عامًّا بأن الخطاب بالسجود يتناوله فهو من الملائكة .

والرأى الثانى : أنه ليس من الملائكة واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة منها .

(ا) قوله تعالى : فى سورة الكهف إلا إبليس كان من الجن .

(ب) إن الملائكة معصومون من المعصية لقوله تعالى : (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وإبليس عصى واستكبر عن السجود فهو ليس من الملائكة .

وأدلة الطرفين متناقضة فلا يمكن الأخذ برأى فى هذا الموضوع ولهذا قيل : إن إبليس ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو خلق مفرد خُلِقَ من نار ، وإبليس يطلق عليه شيطان ، لأن الشياطين هم شرار الجن – فإن منهم أخياراً ، كما يطلق لفظ الشيطان على من تمرد من الإنس والجن والدواب ، وإذا أردت تفصيلا أوضح فارجع إلى كتاب « آكام المرجان » للمحدث الشبلى ولمجلة الأزهر مجلد ٨ ص ٥٦٦ وما بعدها .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين)[٥٣] سورة البقرة آية : ٤٧

* * *

ليس فى القرآن آية تدل على تفضيل بنى إسرائيل على كل العالمين فى جميع العصور وإنما فيه فى سورة البقرة ما يدل على أنهم أفضل عالمى زمانهم ، فقد كانوا مؤمنين بالله ربهم وبأنبيائهم فى وقت كفر الناس فيه بربهم فعوقبوا بعقوبات رادعة من إرسال الجراد على محاصيلهم الزراعية ، وإرسال الضفادع إليهم فأقضت مضاجعهم وحلت بأطعمتهم ، وسال الدم من أجسامهم لابتلائهم بأمراض الحساسية وكانت نهايتهم أن غرقوا فى البحر ونجا موسى عليه السلام ومن معه .

والآيات التى وردت بتفضيل بنى إسرائيل على عالمى زمانهم آيات بسورة البقرة منها : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) .

وبنو إسرائيل الذين لم يؤمنوا بعيسى ومحمد عليهما الصلاةُ والسلام من الخاسرين وليسوا بمساوين لأحد من المسلمين لقول الله تعالى :

---

(٥٣) سورة البقرة – آية (٤٧)

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)

فى تفسير قوله تعالى :

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٥٤] .

* * *

ليس الإيمان بالله واليوم الآخر ممازجاً للنصرانية واليهودية ودين الصابئة على أوضاعها الحاضرة أو المحرفة عما جاء به الأنبياء والمرسلون ولا تدل الآية على شيء من ذلك ، والذى تدل عليه أن المرء على أى دين كان فجاءه دين الله غير محرف على يد الداعى إلى الحق فاتبعه نجا وفاز أو أن الذى كان عليها كما جاء بها أنبياؤهم دون تغيير قبل التعقيب برسالة أخرى كان على الدين الحق ، والصابئة قوم زعموا أنهم .

على دين نوح وقيل يؤمنون بطائفة من الأنبياء ويعظمون الأحد ويعملون بالمعمودية والاعتراف .

فى قول الله تعالى :

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين)[٥٥]

* * *

ادعى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم دون الناس وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن غيرهم من الناس ليس لهم فى الآخرة نصيب من الخير .

فبين الله سبحانه بالدليل العملى كذب اليهود وافتراءهم حيث طالبهم بتمنى الموت والرغبة فيه ولو تمنوه لوقع بهم .

والواقع أن الآية تشتمل على تحقيق الحق بين المسلمين واليهود ، لقد ادعى اليهود ما ادعوا من الميزات فى الآخرة فأمر الله رسوله أن يساجلهم وأن يقول لهم أنتم تقولون ذلك ، وأنا أقول إنه كذب فقالوا نتباهل أى نقول لعنة الله على الكاذب والموت المحقق لمن يدعى خلاف الحق ، فدعاهم ﷺ إلى ذلك فأبوا ولو أجابوه لنزل بهم الموت ولشرق أحدهم بريقه .

وهكذا تبين كذب اليهود فى دعواهم بهذا التحدى وظهر الحق من عند الله .

---

(٥٤) سورة البقرة – آية (٦٢) . (٥٥) سورة البقرة (٩٤) .

فى تفسير قوله تعالى :

(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[٥٦] .

* * *

معنى الآية الكريمة : أن مَن ذكر الله بالقلب كالتفكر فى الدلائل الإلهية ومظاهر الكمال الربانى فى هذا الخلق البديع ، والتنظيم الذى يجبر المتشككين على الإذعان والتسليم ويزيد المهتدين هدى .

ومَنْ ذكر الله باللسان بألوان الذكر الواردة من التسبيح والتهليل والتقديس والصلاة على الرسول ﷺ .

ومَنْ ذكر الله بالجوارح بأداء أمر ربه والابتعاد عما نهى عنه صادراً فى ذلك عن قلب حى وشعور يقظ .

أثابه الله تعالى برفع درجاته وتحسين مكانته ، وما إلى ذلك من المنازل العالية التى لا تحدها حدود ولا تحصرها قيود وعبر عن ذلك بالذكر لأن من يذكر شيئاً يعرف حقه ويدرك ما له وما عليه . وعلى ذلك فعلى الإنسان دائماً – خاصة المسلم أن يذكر الله على كل حال وفى أى وقت لئلا يُحْرم من فضل الله .

فى الآية حث على الذكر ودعوة إليه لما ذكرناه .

وبعد الأمر بالذكر وبيان فائدته جاء الأمر بالشكر ، وقدم الأمر بالذكر على الأمر بالشكر لأن الذاكر مشتغل بالله تعالى والشاكر مشتغل بالنعمة والاشتغال بالله أولى من الاشتغال بالنعم .

ومن لا يشكر الله كافر بنعمه ونعم الله كثيرة . . إنها لا تحصى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ومن داوم على شكر الله زاده سبحانه من نعمه .

(لئن شكرتم لأزيدنكم) .

والذاكر الشاكر راض وهو بذلك سعيد فى دنياه حتى إذا لقى الله سبحانه فرح بلقاء ربه .

فى حياة الشهداء فى سبيل الله

حياة الشهداء ، حياة أرواح فقط ، إلا أنها أرقى من حياة غيرها بدليل قول النبى ﷺ أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى رياض الجنة ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش .

---

(٥٦) سورة البقرة – آية (١٥٢) .

غير أن الآية الكريمة تنص بدلالة اللفظ على أنه لا ينبغى لأحد أن يقول فى الشهداء إنهم أموات بدليل قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون[٥٧] .

وللشهداء خاصية أخرى بالنسبة لأجسادهم ، فإنها تبقى بحالها حتى تبعث أرواح أصحابها متصلة بها .

تلك الخاصية ليست لأحد سواهم إلا الأنبياء الصديقين والعلماء العاملين ، وبالاستقراء وجد أجسام كثير من المشهود لهم بالصلاح والتُّقى باقية فى قبورها بحالها لم يصبها شىء من البلى .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[٥٨] ،

وفى قول الله تعالى : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشدُّ من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين)[٥٩] .

قال الله تعالى : فى سورة البقرة فى الحث على الجهاد : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) .

وقال فى آية أخرى : (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل) .

* * *

والمعنى : روى أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة ليترصّد عيراً لقريش فيهم عمرو بن الحضرمى وثلاثة معهم فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وكان ذلك فى غرة رجب وهم يظنونه جمادى . فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام الذى آمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معاشهم فسفك فيه الدماء وأخذ الأسارى ، فشق ذلك على أصحاب السرية فنزلت الآية : والمعنى أنهم يستعظمون القتال فى الشهر الحرام ، وما فعلوه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام وإخراج المسلمين من ديارهم أكبر من القتال فى

---

(٥٧) سورة البقرة – آية (١٥٤) .

(٥٨) سورة البقرة – آية (١٩٠) .

(٥٩) سورة البقرة – آية (١٩١) .

الشهر الحرام ، والأفظع منه فتنة المسلمين عن دينهم والشرك فى الحرم أشد قبحاً فلا تبالوا أيها المسلمون بقتالهم فى أى مكان وأى زمان .

والذى يرى المنكر يرتكب يجب عليه أن يغيره بأى نوع من أنواع التغيير . ولا يسكت عنه ، فمن وصايا لقمان لابنه : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وحديث الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

فى تفسير قول الله تعالى :

(أحل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . إلى آخر الآية[٦٠] .

* * *

أما قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) فإنه نزل لإزالة لبس حدث فى أول تشريع الصيام ، وذلك أن بعض المؤمنين ظن أن اتصال الرجل بزوجه ومباشرته لها محرم ليلا ، كما هو محرم نهاراً ، فبين الله لهم أن الرفث وهو مباشرة الرجل زوجه ليس بحرام فى ليالى رمضان ، وإن كان محرماً فى نهاره .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[٦١] .

* * *

إن هذه الآية الكريمة تتضمن دعاءً مباركاً وقد كان رسول الله ﷺ يرددها كثيراً ، روى الإمام أحمد عن عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة أنساً ، أى دعوة كان أكثر ما يدعوها النبى ﷺ ؟ قال : يقول : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وكان أنس رضى الله عنه إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها :

---

(٦٠) سورة البقرة – آية (١٨٧) .

(٦١) سورة البقرة – آية (٢٠١) .

ولقد حدث عبد السلام بن شداد كما يذكر ابن كثير – قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم قال :

« اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال يا أبا حمزة إنّ إخوانك يريدون القيام فادعوا الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأموز؟ إذا أتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله .

والحسنة فى الدنيا أوسع من أن تختص بباب من أبواب الخير دون غيره فهى شاملة لجميع أنواع الخير ، وقد جمعت كما يقول الإمام ابن كثير كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر ، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب حصين وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبادات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلّها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا .

وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرضات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة . وقبل أن نترك الكلام عن هذه الآية الكريمة نذكر ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ .

هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟ قال نعم : كنت أقول :

اللهم ماكنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ :

سبحان الله ، لا تطيقه أولا تستطيعه فهلا قلت :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

قال فدعا الله فشفاه . والله أعلم .

فى قوله تعالى :

(نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين)[٦٢] .

* * *

يقول الإمام السجستانى فى غريب القرآن عن هذه الآية :

---

(٦٢) سورة البقرة – آية (٢٢٢) .

الحرث هو إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ويسمى الزرع الحرث أيضاً :

ولما كانت النساء مواضع النسل وما ينبغى فيهن من نطف الرجال فقد شبههن الآية الكريمة بالأرض التى هى موضع الإنبات والزرع . فنطفة الرجل التى تلقى فى الرحم فيكون منها الولد كالبذر الذى يلقى فى الأرض لإنبات الزرع . فيكون معنى الآية الكريمة : نساؤكم مواضع نسلكم كالأرض موضع حرثكم فكما تأتون أرضكم لإصلاحها ، وإلقاء البذر فيها من أى جهة شئتم فأتوا نساءكم من أى جهة شئتم ما دام الإتيان فى موضع الحرث أى « القبل » إذ هو موضع المرأة فلا حرج أن تأتيه من الأمام أو من أى جهة تشاء .

وقدموا الخير الذى أمركم الله به لأنفسكم وذلك شامل لصالح الأعمال ، قال تعالى : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا) .

وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند غشيان الزوجة ومن الأدعية المأثورة فى هذه الحالة « بسم الله اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » ولا مانع أن يشمل ذلك كله ، واتقوا الله وخافوا ربكم وراقبوه فى جميع أحوالكم فافعلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه واعلموا أنكم مُلاقوه ، فمجازيكم على أعمالكم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

وبشر المؤمنين الذين يعملون خير الأعمال ويتركون قبيحها . روى أن اليهود كانوا يقولون : مَنْ جامَع امرأته من الخلف فى قبلها جاء ولدها أحول فذكر ذلك درسول الله ﷺ فقال صلوات الله وسلامه عليه كذبت اليهود ونزلت الآية :

يقول الإمام الزمخشرى فى تفسير الكشاف وقوله تعالى : (فأتوا حرثكم أنّى شئتم من الكنايات اللطيفة والتفويضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها فى كلام الله لقوله هو أذى فاعتزلوا النساء ، وقوله فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مللها فى محاوراتهم ومكاتباتهم .

أما آية : (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . . الآية (٥٨) من سورة النور فقد اشتملت على كثير من الآداب الحميدة والتوجيهات السديدة ، ومن هذه الآداب الحميدة والتوجيهات السديدة ومن هذه الآيات يجب أن يأخذ الآباء بها أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد ، كما يؤدب بها الإماء والعبيد . والاستئذان قبل الدخول فى ثلاث حالات قد يكون الإنسان فيها مكشوف العورة أو هو معرض لكشفها ، لأنه فى هذه الحالات الثلاثة غالباً ما يخلع ملابسه ويستبدل بها من الملابس أو الغطاء ما لا يؤمن معه كشف ما لا يحسن كشفه أما الإماء

أو الأطفال وهذه الأوقات الثلاثة وقت القيلولة وبعد صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر وقد سماها القرآن عورات ثلاث ، إذ فيها يختل نظام الإنسان فى ملبسه على الوجه الذى شرحنا « بقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) أمر الله سبحانه المؤمنين بأن يؤدبوا عبيدهم وإماءهم وكذلك أطفالهم الذين لم يبلغوا من التكليف بهذا الأدب الإسلامى الجميل ، وهو الاستئذان قبل الدخول بملبسهم ثلاث مرات فى اليوم والليلة هى : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة – أى تخلعوها فى القيلولة – ومن بعد صلاة العشاء هذه الأوقات الثلاثة لا يجوز دخول الصغار والإماء فيها إلا بعد الاستئذان لتكونوا قد سترتم فيها ما عساه أن يكون قد انكشف من عوراتكم فقبل صلاة الفجر وقت القيام من النوم وطرح الثياب التى ينام فيها ، ووقت الظهيرة تخلع الملابس للقيلولة وبعد صلاة العشاء وقت التجرد من ثياب اليقظة وارتداء ثياب النوم ، أما عدا هذه الأوقات الثلاثة فلا حرج عليكم فى أن يدخل إماؤكم وصغاركم عليكم فيها ، بلا استئذان لأنهم يطوفون عليكم لخدمتكم وتطوفون عليهم لاستخدامهم وطلب ما تحتاجون إليه منهم .

ليس عليكم جناح بعدهن أى بعد الأوقات الثلاثة المذكورة (طوافون عليكم بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض ، فالحاجات بينكم وبينهم متداخلة والمصالح متشابكة والأمر بالاستئذان فى كل وقت يؤدى إلى الحرج (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى مثل ذلك البيان والتوضيح يوضح الله لكم آياته والله عليم حكيم بأحوالكم وما يصلح أمركم ، حكيم فيما يشرعه لكم من آداب وأحكام .

روى عن مدلج بن عمرو – وكان غلاماً أنصاريا – أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهيرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه : فقال عمر : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا ألاّ يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية : وهى إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضى الله عنه وقيل نزلت فى أسماء بنت أبى مرشد قالت : إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلها يكونان فى لحاف واحد – وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون فى حال نكرهها – فنزلت الآية الكريمة :

فى تفسير قول الله تعالى :

(والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن

فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير[٦٣]) .

* * *

والمعنى أن الذين يموتون ويتركون زوجات لهم : يجب على الزوجات أن ينتظرن بدون تعرض للزواج ولا يصح العقد عليهن فى مدة أربعة أشهر وعشرة أيام ، فإذا انتهت تلك المدة فلا إثم ولا حرج على ولاة أمورهن فى السماح لهن بالتزين والتجمل والتعرض للزواج فى حدود ما هو معروف فى الشرع ، والله ، سبحانه وتعالى : بما تعملونه خبير ، فلا يخفى عليه شىء من التحايل فى مخالفة المعروف فى شرعه ودينه .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام .

ولكن آية فى سورة الطلاق خصصت تلك الآية بغير الحامل حيث قال الله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

والمقصود من المعروف ما يقره الشرع من التزين المقبول ، فإذا تبرجت النساء أو تزين بما يخالف الشريعة الغراء أثِمْن ووجب على ولاة أمورهن منعهن .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد[٦٤]) .

* * *

يأمر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين بالصدقة من طيبات أموالهم ، قال حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه .

ونهاهم عن التصدق براذلة المال ودنيئه وهو خبيثه فإن الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيباً .

ويقول الإمام ابن كثير : ولهذا قال : (ولا تيمموا الخبيث) أى تقصدوا الخبيث ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) أى لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون .

والهدف الذى من أجله ذكرنا هذه الآية الكريمة هو أن كثرة الثواب فى الصدقة تابعة لطيب المتصدق به وجودته فإن كانت فضلات الطعام هى الأطهر الأنفس الأجود فثوابها أكثر .

---

(٦٣) الآية (٢٣٤) من سورة البقرة .

(٦٤) الآية (٢٦٧) من سورة البقرة .

على أن كثرة الثواب فى الصدقة متعلق بأمر ثان أيضاً هو صفاء المتصدق وإخلاصه وإرادة وجه الله سبحانه فى تصدّقه .

والخلاصة أن كثرة الثواب على الطيب من الصدقة أى أن تكون المتصدَّق به طيباً فى النوع وطيباً من حيث نيّة المتصدق .

يقول الله تعالى :

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيّات »

فعلى قدر جودة المتصدَّق به وعلى قدر صفاء المتصدِّق يكون الثواب .

فى تفسير قول الله تعالى :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال مَن أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلْتَ واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين[٦٥]) .

ما يتعلق بالمفردات :

أحسّ عيسى : أى علم ويقول أبو منصور اللغوى : يقال أحسست بالشىء وحسست . وقول الناس فى المعلومات محسوسات خطأ . والصواب المحسّات ، فأما المحسوسات فهى المقتولات يقال حسه إذا قتله .

والأنصار : الأعوان . واستنصرهم طلب عونهم على إقامة الحق وبيان أمر الله المُوحَى به .

والحواريون : هم كما يقول الإمام ابن عباس أصفياء عيسى ، ويقول الفراء هم خواص عيسى . أما الحواريون فى اللغة فهم الذين طهروا من كل عيب .

وهؤلاء الحواريون كانوا اثنى عشر رجلا . وكانت صناعتهم صيد السمك كما يقول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما .

لقد استجاب هؤلاء للدعوة إلى الله وقالوا فى صدق وإخلاص نحن أنصار الله . والدعوة إلى الله والاستجابة إلى هذه الدعوة معناها الإيمان الصادق بالتوحيد الخالص .

والتوحيد الخالص فى الماضى وفى الحاضر وفى كل مكان وفى كل زمان إنما هو الإيمان بأن الله

---

(٦٥) آيتا (٥٢ ، ٥٣) من سورة آل عمران .

وحده هو المتصرّف فى الكون لا شريك له فى الذات ، ولا شريك له فى الفعل ، من خلق ورزق وإعطاء ومنع وحياة وموت .

وقد بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة هذه العقيدة فى استفاضة وفى دقة لا مزيد عليها .

وليس فى العالم الآن نص مقدس للأسلوب الإلهى يشرح الإيمان بالله كما يشرحه القرآن .

والكلمة التى تعبر عن هذا فى إحاطة شاملة وفى عمق عميق هى كلمة الإسلام . ومن أجل ذلك عبر الحواريون عن شعورهم العامر بالإيمان بالله بقولهم لعيسى عليه السلام : واشهد بأنا مسلمون .

وإذا أردنا شرحاً لكلمة الحواريين واشهد بأنا مسلمون فإننا نقول : إن رسولنا ﷺ : سئل عن الإسلام ما هو فقال : أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

لقد أسلم الحواريون قلوبهم لله فأصبحوا مسلمون ، والإسلام بهذا المعنى هو التوحيد . وإذا وجد الإنسان ربه فإنه يسير فى جو : إياك نعبد وإياك نستعين : وجو إياك نعبد وإياك نستعين هو الجو الإسلامى الصادق وهو جو الأنبياء فى رسالتهم الصافية .

إن سيدنا نوحاً يقول : وأمرت أن أكون من المسلمين .

لقد أمر أن يسلم قلبه لله تعالى ، وأمر أن يدعو قومه إلى ذلك . يقول الله سبحانه وتعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) .

وأما هود فقد قال لقومه : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . وصالح أيضاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وكل الرسل أمروا بالتوحيد وأمروا به أى أُمروا وأَمروا بإسلام القلب لله ، وكانوا بذلك مسلمين ، وكانوا بذلك يسيرون على منهج إياك نعبد وإياك نستعين .

وكان الحواريون مسلمين بهذا المعنى :

والإسلام بهذا المعنى هو الدين : إنه الدين فى إطلاقه المطلق زماناً ومكاناً ، وفى تحديده المحدد فى القلب ، وفى السلوك وهو بذلك الدين عند الله .

إن الدين عند الله الإسلام .

وإذا كان ما قدمنا منطقاً دقيقاً لقضية (إن الدين عند الله الإسلام) ولا يتمارى فى ذلك أحد – فإن معنى ذلك أن إسلام القلب لله هو الدين منذ الأزل ، ولقد جاءت الرسل به ، وبكيفية الوصول إلى تحققه فى القلب والشعور ، لقد حققه الحواريون .

وتابع الحواريون حديثهم قائلين (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) .

وما من شك فى أن من اتبع الرسول على الوضع السليم فإنه يسلم قلبه لله ، ومن أسلم قلبه لله فإنه يكون بذلك قد هيأ نفسه ليكتبه الله مع الشاهدين .

والشاهدون هم الصادقون المخلصون فى إيمانهم . اعترفوا به قولا وصدقوا قلباً ، . وأقاموه بجوارحهم .

أما كيفية إسلام القلب لله فى العصر الحاضر ، فقد تكفل بها القرآن الكريم فى تفصيل مفصل وفى دقة دقيقة بالأسلوب الإلهى نفسه الذى قال الله عنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

فى معنى قوله تعالى :

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين)[٦٦]

* * *

هذه الآية من آيات سورة آل عمران المباركة ، وسورة آل عمران تتحدث فيما تتحدث عنه -- عن عقيدة التوحيد لله سبحانه ، وهذه العقيدة هى جوهر عقيدة الإسلام التى قررها رب العزة وشهد بها هو وملائكته وأولو العلم فقال فى السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) .

وقد جاءت الآية المسئول عنها فى هذا الإطار من الدعوة إلى التوحيد ونبذ غيره من الأديان ، سواء كانت ديانات صحيحة ثم حرفت أو اتجاهات فكرية فاسدة أدت إلى الشرك والإلحاد كعقائد الوثنية والشيوعية وغيرها .

ولكى يزداد الجواب وضوحاً نحب أن نقول : إن الآية الكريمة المذكورة سبقت بآيات أربع تقرر عقيدة الإسلام منذ الأزل فهى دعوة الرسل كلهم جميعاً منذ آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام بأن يكون من جوهر رسالتهم ودعوتهم إلى الله أن يؤمنوا بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء وينصروه وإن بعث بعدهم مع ما آتاهم الله من علم ونبوة كريمة وحكمة .

وقد أقروا جميعاً عليهم السلام وشهدوا وشهد الله معهم على هذا الميثاق وتوعد الله من ينقض هذا العهد بالعذاب ووصفه بالفسوق والعصيان ، ثم ينكر الله سبحانه على من أراد ديناً سوى دين الله الإسلام القائم على التوحيد الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ثم أمر رسوله الكريم ﷺ أن يسلك نفسه فى هذا العهد والميثاق من دعوة الرسل لله المسماة بالإسلام لا يفرق بين أحد منهم

(٦٦) سورة آل عمران - آية (٨٥) .

ويؤمن بهم جميعاً كما آمنوا به فى العهد والميثاق الذى أخذ عليهم ، ويعلن فى صراحة ووضوح أن دينه وهو دين (الإسلام) ما هو الإ امتداد وإكمال لدعوة مَن سبقه من الرسل والأنبياء .

ثم تأتى بعد ذلك الآية المسئول عنها ليقرر فيها الحق سبحانه أن من سلك طريقاً آخر غير الإسلام أيًّا كان هذا الطريق سواء كان ديناً محرّفاً عن وجهه الصحيح ، أو عقيدة فاسدة قامت على اتباع الهوى وميل النفس والشيطان ، كل ذلك لن يقبل من صاحبه لأنه مهما حل من الفضائل فهو بعيد عن أمرين :

الأمر الأول : عقيدة التوحيد لله سبحانه .

والأمر الثانى : الإيمان بالله والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، وبدون هذين الأمرين لا تقبل عقيدة مهما كانت : أما الآيات فهى قوله سبحانه :

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرى ، قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوْعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ثم جاءت الآية الكريمة بعد ذلك قائلة .

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .)

فى قوله تعالى :

(فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[٦٧])

* * *

معنى الآية كما ورد فى كتاب الكشاف للزمخشرى وروح المعانى للألوسى وتفسير الحافظ وابن كثير وغيرهم ، فمن حاجك أى جادلك وخاصمك من النصارى فى شأن ليس من بعد ما جاءك من البينات الموجبة للعلم فقل : « تعالوا » أى هلموا ندع كل منا ومنكم أبناءه ونفسه إلى المباهلة ،

(٦٧) سورة آل عمران - آية (٦١) .

ثم نتباهل بأن نقول : مبهلة الله « أى لعنة الله على الكاذب منا ومنكم ، يقول الزمخشرى : البهلة بالفتح والضم لعنة وبهله الله ، لعنه وأبعده من رحمته ، من قولك أبهله إذا أهمله ، وأصل الابتهال هذا ، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه ، وإن لم يكن التعاناً يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا وفد نجران : إن النصارى لما قدموا على رسول الله ﷺ فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم ، قال الإمام محمد بن إسحق بن بصار فى سيرته المشهورة وغيره : قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يئول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح وهو الأيهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكربن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد وابناه وخويلد ، وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يئول إلى ثلاثة منهم وهم : العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم ، وكان رجلا من رجال العرب من بنى بكربن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس ، واخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وكان يعرف أمر رسول الله ﷺ . وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ، ولكنه استمر فى النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها قال ابن إسحاق وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية يقول ، من رآهم من أصحاب النبى ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (دعوهم) فصلوا إلى المشرق قال : فكلم رسول الله ﷺ من أبى حارثة بن علقة والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون هو الله ، أى (عيسى) ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً ، وفى كل ذلك من قولهم نزل القرآن .

فلما كلمه حبران قال لهما رسول الله ﷺ « أسلما » قالا قد أسلمنا قال : إنكما لم تسلما فاسلما « قالا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما أن لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير .

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما فأنزل الله فى ذلك قولهم أمرهم سورة آل عمران فى بضع وثمانين منها .

وجاء فى تفسير الألوسى أن رسول الله ﷺ لما تلا عليهم قوله تعالى :

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) قالوا : إن ما نعرف ما تقول ونزل (فمن حاجّك . .) الآية .

فقال لهم رسول الله ﷺ إن الله تعالى قد أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم « فقالوا يا أبا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك ، وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن طريف عطاء والضحاك عن ابن عباس أن ثمانية من أساقفة أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد فلما نزلت آية المباهلة قالوا : أخرنا ثلاثة أيام فخلا بعضهم ، وتصادقوا فيما بينهم .

قال السيد للعاقب ، قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل ، ولئن لاعنتموه إنه ليستأصلكم وما لاعن قوم نبيًّا قط ، فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لم تتبصروه تبصرة ، وأبيتم إلا ألف دينكم ، فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم .

وقد كان رسول الله ﷺ خرج ومعه على والحسن والحسين وفاطمة فقال رسول الله ﷺ « إن أنا دعوت فأمّنوا أنتم » فأبوا أن يلاعنوه ، وصالحوه على الجزية .

وعن الشعبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد أتانى البشير أهل نجران حتى الطير على الشجر لو تموا على الملاعنة .

وروى أن أسقف نجران لما رأى رسول الله ﷺ مقبلا ومعه على وفاطمة والحسنان رضى الله عنهم قال : يا معشر النصارى إنه رأى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لانباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا ونصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة ، ألف فى صفر وألف فى رجب وثلاثين درعاً عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك وقال : والذى نفسى بيده أن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ولا استأصل الله نجران وأهله حتى يطيروا على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى وكلهم حتى يهلكوا .

وبعد فالسائل بعد هذا البيان قد عرف الإجابة عن كل ما أورد من أسئلة . والله الموفق .

فى تفسير قوله تعالى :

(قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون[٦٨]) .

* * *

أرسل رسول الله ﷺ كتباً إلى النصارى يدعوهم فيها إلى الإسلام وفى هذه الكتب قوله تعالى : (بسم الله الرحمٰن الرحيم) وهى آية من القرآن الكريم وفى بعضها ، قوله تعالى : (يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) وهذا نص قرآنى ، وأرسل رسول الله هذه الكتب وهو يعلم أن هؤلاء النصارى يمسونها ، وقد يكون أحدهم جُنباً ، ومن هنا رأى الإمام داود الظاهرى والإمام ابن حزم والإمام البخارى : إنه يجوز مس المصحف للجنب ، أما من حرم ذلك فإنما حرمه تعظيماً للمصحف وتكريماً ، وتعظيم المصحف وتكريمه تقتضى أن يرفع المسلم المصحف مباشرة إذا رآه مُلقىً فى نجاسة ولو كان جُنباً فإذا تركه فإنه يكون آثماً بتركه ، وإذا رفعه ولو كان جنباً فإنه يُثاب على رفعه وقوله تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون.لا يمسه إلا المطهرون) « فسرها الإمام البيضاوى – على أحد مذاهب التفسير – بقوله : « فى كتاب مكنون » : مصدق ، وهو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون ، لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدرات الجسمانية وهم الملائكة .

ويجوز إعطاء المصحف لغير المسلم لإصلاحه إذا كان ممزقاً أو لتجليده إذا لم يوجد مسلم يقوم بهذا العمل ، أما إذا وجد مسلم يقوم بذلك فهو أولى : وذلك لأن المسلم – لإيمانه يعظم المصحف ويحترمه ، أما غير المسلم – لعدم إيمانه بالقرآن لا يتحرى الاحترام والتكريم .

فى قول الله تعالى :

(كنتم خير أمة أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون[٦٩]) .

* * *

بين الله سبحانه وتعالى السبب فى خيرية الأمة الإسلامية وذلك هو قيامها فرداً فرداً بالأمر بالمعروف ، والمعروف الذى تقدم الأمة الإسلامية على الأمر به هو الحق ، وهو الخير ، وهو الفضيلة ، وهو العدل ، وهو الرحمة ، وهو كل هذه الآداب السامية والشيم الجميلة التى أتى بها

---

(٦٨) آل عمران آية (٦٤) .

(٦٩) سورة آل عمران – آية (١١٠)

الإسلام والتى يتضمنها الإيمان مبتدئة بإماطة الأذى عن الطريق حتى تنتهى بشهادة أن لا إله إلا الله .

والمنكر الذى تحاربه الأمة الإسلامية وتنهى عنه إنما هو الرذيلة بجميع ضروبها ، وهو الظلم على اختلاف ألوانه ، وهو التعدى غدراً وخيانة ، وهو كل ضرب من ضروب البطش والجبروت . إن الأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ثم لإيمانها بالله الذى حدد الله فى نطاقه تحديداً كاملا الخير والشر .

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من المبادئ التى اهتم الله سبحانه ورسوله بتوطيده توطيداً محكماً ، ولقد أمر الله به ورتب عليه الفلاح فقال سبحانه : ولتكن منكم أمة ،

وإذا كانت الأمة الإسلامية خير أمّة أُخرجت للناس لهذا فإن الله لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل لأنهم ما كانوا يقومون بهذا المبدأ فقال سبحانه : (لُعِن الذين كفروا من بنى إسرائيل . .) الآية .

ولقد بين رسول الله ﷺ عاقبة اتباع مبدأى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى النجاة ، وعاقبة إهمالها وهى الغرق فقال فى حديث رائع : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا

إنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

فى قوله تعالى :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين[٧٠]) .

* * *

هذه الآية نزلت تعقيباً على ما حدث فى غزوة أُحد حينما أُشيع بين الناس أن محمداً ﷺ قد قتل ورأى بعض الصحابة أن الحاجة إلى القتال قد انتهت وخارت عزائمهم ، ولكن بعض الصحابة ثبتوا فى مواقعهم وتمسكوا بالقتال . . عن أنس رضى الله عنه أن عمه أنسَ بن النضير غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله النبى ﷺ للمشركين لئن أشهدنى الله قتالا للمشركين

(٧٠) سورة آل عمران – آية (١٤٤) .

لبرين ، ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك عما صنع هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعنى المشركين ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد ، فقال سعد : أنا معك قال سعد : فلم أستطع أصنع ما صنع . فوُجِدَ فيه بضع وثمانون من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ، قال : فكنا نقول : فيه وفى أصحابه نزلت (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) .

ونزلت الآية الكريمة : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن الدين والرسالة لا يرتبطان بحياة الرسول ﷺ الدنيوية أو انتهاء هذه الحياة فالمؤمن حقًّا يدافع عن الدين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم النّاسُ إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم[٧١]) .

° ° °

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران :

(الذين استجابوا . . . . . ذو فضل عظيم) الآيات

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة فى جملة ما نزل من آيات فى غزوة أحد ، ولقد كان فى غزوة أحد دروس وعظات كثيرة ، وكانت عاقبة هذه الغزوة خيراً بالنسبة للمسلمين ، فقد علمتهم أموراً كثيرة نذكر منها أمراً واحداً فقط هو :

أن يلتزموا التزاماً تامًّا بأمر القائد مهما كانت الظروف ، ومهما صور لهم خيالهم أنهم أصبحوا فى حِلٍّ من مخالفة الأمر . وذلك أنهم رأوا بأعينهم بغية مخالفة الأمر وهو ما بدا من مظهر الهزيمة .

وما إن انتهت المعركة بهذا المظهر حتى ركب الأعداء راجعين إلى مكة ، ولكن المسلمين ظنوا أن الأعداء ركبوا مسرعين من أجل الذهاب إلى المدينة ، وكان هذا هو المنطق الطبيعى لغلبتهم : أن يذهبوا إلى المدينة ليقضوا على الإسلام نهائيًّا .

(٧١) سورة آل عمران – الآيات (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤) .

فدعا رسول الله ﷺ المسلمين للنهوض من كبوتهم والاستعداد لسبق العدو إلى المدينة إذا كان حقًّا ذاهباً إليها . ولمَّ المسلمون شعثهم وضمدوا جراحهم وحفزهم الإيمان والثقة فى الله على النشاط والعمل ، واستجابوا بذلك لله ورسوله من بعد ما أصابهم القرح : أى نالهم الجراح والطعنات والضرّ على جميع ألوانه يوم أحد .

فوعد الله سبحانه وتعالى الذين أحسنوا منهم واتقوا الأجر العظيم . وهل ذهب المشركون إلى مكة دون تردد أو تلاوم ؟

كلا فإنهم حين سار بهم الطريق عادوا إلى أنفسهم يتساءلون أكانت المعركة فاصلة ؟ أأحسنوا فى العودة إلى مكة ؟ وأخذوا يترددون ويتلاومون ويحيلون الرأى فيما بينهم ثم رأوا أن يمكروا بالمسلمين ليروا أثر الهزيمة فى نفوسهم فأرسلوا إليهم يذكرون فيها أنهم قد جمعوا لهم جموعهم من جديد ليستأصلوا عن آخرهم .

وحين بلغت هذه الرسالة التى حاول المشركون أن يظهروها بمظهر الرسالة العرضية استعد المسلمون استعداداً كاملا للمعركة من جديد . وعبر القرآن عن ذلك فى أسلوب جميل وفى روح قوية وفى معنى من الإيمان عميق ، يقول الله تعالى : (الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوْهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

فلما كان ذلك رد الفعل فى نفوسهم أثابهم الله تعالى على ذلك بما عبر سبحانه وتعالى عنه بقوله .

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) .

فى قوله تعالى :

(يأيُّها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً[٧٢]) .

* * *

قال ابن عباس فى هذه الآية . كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها . . وإن شاءوا زوجوها وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية :

وفى بعض الروايات عنه : أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله تعالى عنه بذلك أى نهى عن ذلك .

(٧٢) سورة النساء آية (١٩) .

وقيل : كان الرجل إذا مات وترك زوجه ألقى عليها قربه ثوبه فمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها فنزلت الآية .

ولا يخفى ما كان فى ذلك كله من تصرفات الجاهلية – من إهدار لحرية المرأة وكرامتها واستهانة بحقها ، فمنعه الله تعالى وترك لها حرية اختيار من تقبله من الأزواج بعد انقضاء عدة الوفاة ، وارتفع بها عن أن تكون مادة من المواد الموروثة عند الزوج .

فإذا ما انقضت العدة تقدم للزواج بالمرأة من شاء من الرجال من أقارب الزوج أو من غيرهم ، فمن قبلت الارتباط به حل له زواجها .

ويستوى على ذلك أى قريب للزوج ، فيجوز تزوجها من شقيقه ومن ابن عمه وابن خاله : نعم لا يجوز لها الزواج من أبيه لأن الله تعالى جعل من المحرمات حلائل الأبناء أى زوجاتهم .

ولا يجوز لها الزواج من ابنه لأن الله تعالى قال .

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) .

وما عدا ذلك من الأقارب يحل له الزواج منها ، ويحل لها الزواج منه ، بعد العدة وبعد استيفاء شروط النكاح .

فى تفسير الآية الكريمة وهى قوله تعالى :

(الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا[٧٣]) .

* * *

هذه الآية تعالج أموراً خطيرة من أمور الأسرة بصفتها مجتمعاً صغيراً يحتاج – ككل مجتمع من المجتمعات – إلى قائد يقوم على أمره ويسوس شئونه ويرجع إليه الأمر فى إدارة السفينة ، فتقرر الآية الكريمة الشأن فى القيام على النساء ورعايتهن وتوجيههن كما يوجه الراعى رعيته بالأمر والنهى ونحو ذلك هو للرجال .

يقول الإمام الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة (الرجال قوامون على النساء) للإيذان بعراقة الرجال ورسوخهم فى الاتصاف بما أسند إليهم .

وعلل سبحانه وتعالى : هذا الحكم بأمرين

---

(٧٣) سورة النساء (٣٤) .

أحدهما : فطرى خلقى (بما فضل الله بعضهم على بعض) والآخر : فى الأصل التكوينى والخلقة فالشأن أن الرجال مهما قاموا بفطرتهم وتكوينهم للقيام بهذه المهمة فهم قوامون على النساء بسبب تفضيل الله تعالى لهم عليهن ، ولذلك خصوا بالرسالة والإمامة الكبرى ، فلا تكون المرأة خليفة للمسلمين ، والإمامة الصغرى فلا تصلى إماماً للرجال . كما خصوا كذلك بإقامة الشعائر كالأذان والإقامة والخطبة والجمعة والشهادة فى أمهات القضايا ، وجعلت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل فى قضايا المعاملات .

قال تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تَضِلّ إحداهما فتُذكّر إحداهما الأخرى) .

الأمر الثانى : فى التعليل لهذا الحكم أمر كسبىّ وليس فطريًّا والشأن أن يقوم به الرجال ، وهو قوله تعالى : (وبما أنفقوا من أموالهم) قال مجاهد : إنه المهر ، ويجوز أن يُراد به ما يعم المهر والإنفاق عليهن ، فالرجال هم الذين يدفعون المهور للنساء وهم الذين يجب عليهم الإنفاق عليهن حتى ولو كنّ غنيّات بمالهن الخاص بهن .

ثم بينت الآية بعد ذلك المنهج الذى يسلكه الرجال إذا نشزت المرأة وخرجت على طاعته من وعظ وهجر فى المضاجع وضرب غير مبرح ، فإذا أطاعت واستقام أمرها فلا سبيل لبغى الرجل عليها أو طلاقه لها ، (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)

ولعله من المفيد أن نبين سبب نزول هذه الآية ليتبين للناس مدى عناية شرع الله تعالى بأمور الأسرة وما يصلح شأنها يقول : الألوسى : والآية كما روى عن مقاتل : نزلت فى سعد بن الربيع ابن عمرو ، وكان من النقباء وفى امرأته حبيبة بنت زيد بن زهير وذلك أنها نشزت عليه فلطمها .

فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ فقال : أفرشته كريمتى فلطمها . فقال النبى ﷺ لتقتص من زوجها . فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبى ﷺ : ارجعوا هذا جبريل عليه السلام : (أتانى) وأنزل الله هذه الآية : الرجال قوامون على النساء . . إلخ .

فتلاها ﷺ ، ثم قال : أردنا أمراً وأراد الله تعالى أمراً والذى أراده الله تعالى خير . . وقال الكلبى نزلت فى سعد بن الربيع وامرأته خولة بنت محمد بن سلمة وذكر القصة وقد استدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته ، وأن عليها طاعته لا فى معصية الله تعالى ، وأن أفضلية الرجل على المرأة إنما بالفطرة والتكوين والخلق حتى إن كان فقيراً ففقر الرجل لا يجعل المرأة أفضل منه .

فى تفسير قول الله تعالى :

(حُرِّمتْ عليكم الميتةُ والدَّم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ والمَوْقوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحةُ وما أكلَ السَّبع إلا ما ذكّيتم وما ذُبح على النُّصُبِ [٧٤]) .

* * *

أل فى الآية الكريمة للجنس الشامل للبرى المتوحش والمستأنس الذى يُربّى فى البيوت ويألف لأنه لم يرد من السنّة تخصيص لبعض أنواعه دون البعض .

ونفهم من نص الآية الكريمة : أن أكل لحم الخنزير بصفة عامة حرام يجب البعد والكف عن تناوله والاجتناب الكلى عنه امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى واتباعاً لرسوله ﷺ ، فإنه الإمام والقدوة الحسنة الذى تجب متابعته دون متابعة الذين يتناولونه من غير المسلمين .

وما أظن الذين يحرصون على تناول لحم الخنزير البرى مفرقين بينه وبين الخنزير الذى يربى فى البيوت ، إلا تابعين لغير المسلمين تحقيقاً لمعجزة النبى ﷺ فى الذين يخالفون عن أمر الله وعن أمر الرسول ﷺ حيث يقول : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً شبر ، وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضَبٍّ خرب لسلكتموه » إذن فإن لحم الخنزير سواء كان بريًّا أو مربّى فى البيوت – لا يصح لمسلم أكله ولا يجوز مطلقاً تناوله .

فى تفسير قول الله تعالى :

(اليوم أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ مُحصنين غير مُسافحين ولا مُتَّخذِى أخدانٍ ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبِطَ عملُهُ وهو فى الآخرةِ من الخاسرين) [٧٥] .

* * *

والمحصنات : هُنَّ العفيفات العاقلات الممتنعات عن الزِّنى والفساد .

والآية دالة على جواز نكاحهن دون غيرهن من أهل الشرك من المجوس ومنكرى الدين جملة .

فيجوز على هذه الآية نكاح المسلم الكتابية يهودية أو نصرانية بدليل هذه الآية .

---

(٧٤) سورة المائدة – آية (٣) .

(٧٥) سورة المائدة – آية (٥) .

ويرى ابن عمر أن اليهودية والنصرانية من أهل الشرك لأنهم بدّلوا الدين ، وقالوا فى الله تعالى ما لا يليق به .

والجمهور على خلاف ذلك :

نعم يجوز للحاكم لمصلحة خاصة أن يمنع مثل هذا النكاح إذ رأى فيه ما قد يضر بالدولة أو يسىء إلى النظام العام .

من ذلك ما فعله عمر مع بعض الصحابة ممن تزوج بغير مسلمة .

فى تفسير قوله تعالى :

(يهدى به الله مَنِ اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذْنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم) (٧٦)

* * *

قال المفسرون فى معنى هذه الآية : إن الله سبحانه وتعالى يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير .

وإن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك والضلال .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

وإنما جمع سبحانه وتعالى لفظ الظلمات ووحد النور ولم يجمعه لأن الحق الذى هو مُشبّه بالنور واحد ، والكفر الذى هو الظلمات أجناس كثيرة وأصناف متعددة وكلها باطلة ، كما قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) .

ففى هذا إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه ولذا كان طريق الإيمان واحداً لا اعوجاج فيه ولا التواء ولا تفرق .

وأما الكفر والضلال فطرقها متعددة متشعبة .

---

(٧٦) سورة المائدة – آية (١٦) .

فى تفسير قوله تعالى :

(إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (٧٧)

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وفى سورة المائدة يقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم ، إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين) .

* * *

وهذه الآيات كلها ، وغيرها كثير ، صريحة فى أنه لا يصح أن يكون الأب المسيحى وليًّا لابنته المسلمة فى عقد زواجها .

وقد يسأل إنسان : ومن يكون الوالى إذاً ؟

إن الوالى الذى يتولى عقد الزواج فى مثل هذا هو الحاكم المسلم أو من يقوم مقامه من المسلمين أو مَن توكله هى أن يتولى عقد زواجها .

أما إذا رفض الأب المسيحى زواج ابنته التى أسلمت من شخص صممت هى أن تتزوج منه بعد أن أسلمت فليس لرفض الأب قيمة .

وإذا عقد العقد عند مأذون شرعى واستوفى شروطه من وجود الوكيل الذى توكله الزوجة ، ومن وجود الشهود ، فعقد الزواج صحيح ولا يؤثر رفض الأب المسيحى فى صحته .

فى معنى قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (٧٨)

* * *

وبهذا قطع الله سبحانه وتعالى الطريق على كل متعلل لشربها وأبى قبول أى عذر ممن يتناولها ،

---

(٧٧) سورة المائدة - آية (٥٥) .

(٧٨) سورة المائدة - آيتا (٩٠ - ٩١) .

والصلاة عماد الدين ، وبين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة ، وقد حدد الله تعالى لها مواقيتها وأمر بمراعاة هذه الأوقات قال تعالى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

ونزل جبريل فصلى بالنبى ﷺ كل صلاة وبيّن من الصلوات فى يومين متتابعين ، وفى اليوم الأول كانت صلاته فى أول الوقت ، وفى اليوم التالى كانت صلاته فى آخر الوقت ، وبيّن بعد ذلك أن ما بين صلاته من وقت هو وقت الصلاة المطلوب أداؤها فيه .

ولا يجوز تقديم الصلاة على وقتها إلا لعذر ضرورى من سفر أو مطر يتعذر معه أداء الصلاة فى وقتها أو الاجتماع لها فى المسجد فى هذا الوقت .

كما لا يجوز تأخيرها عن وقتها المحدد إلا لعذر قهرى من الأعذار التى حددها الرسول ﷺ بقوله : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على مثله حتى يبرأ . وعن النائم حتى يحلم وفى رواية : وعن المبتلى حتى يبرأ » .

وكلها موانع طبيعية لا يد للإنسان فى أحداثها ولا قدرة له على منعها : أما شرب الخمر فإنه كبير وجرم شنيع وصاحبه مسئول عما يرتكبه فى حال سكره محاسب عليه فى الدنيا أمام قانون الشرع ، وفى الآخرة أمام الله .

وقد جعل الله الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فكيف يجوز التلاعب بها تقديماً أو تأخيراً للتمكن من فعل المنكر وهو شرب الخمر .

وبعد ، فلا يجوز لمسلم أن يسكر ولا يصح له تقديم الصلاة على وقتها لأجل هذا السكر أو الخوف من حدوثه ، وليتق الله ربه ليحسن حسابه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم .

فى تفسير قول الله سبحانه :

(يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم) ويقول الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره . . الخ » فهل هناك تعارض بين الآية والحديث ؟

* * *

للإجابة على هذا السؤال : نذكر حديثين يتصلان بالموضوع أوثق اتصال : روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يأيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من

ضلّ إذا اهتديتم) وأنكم تضعونها على غير موضعها .

وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه »

وروى الترمذى بسنده عن أبى أمية الشيبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية ؟

قلت : قول الله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) . .

قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت رسول الله ﷺ قال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًّا مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة ، وإعجابَ كلِّ ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم .

ومعنى الآية إذن : إن على المسلم أن يأمر وينهى ولا عليه بعد ذلك أثمر سعيه أم لم يثمر . .

فيكون المقصود لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم بالتمسك بالحق والدعوة إليه ، ونبذ الباطل والنهى عنه ، وهو ما يوافق حديث أبى بكر رضى الله عنه ، وهذا التفسير هو ما نرجحه .

وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين حديث . من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، لأن الآية تطمئن المسلم إلى أنه لا وزر عليه إذا أدى واجبه وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقُل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنّه غفور رحيم) (٧٩)

* * *

إن هذه الآية الكريمة توضح تفضل الله على عباده ورحمته بهم ، فهى تأمر الرسول ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين عملوا السيئات ثم تابوا وأخلصوا بأن أمرهم سلام ، أى أن التوبة انتهت بهم إلى السلامة ، فقد غفر الله لهم وتقبل توبتهم وعرفهم أن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة لهؤلاء الذين يعملون المعاصى عن جهل بعقابها بالنسبة لهم فى هذه الحياة الدنيا ، وعن جهل

(٧٩) سورة الأنعام – آية (٥٤) .

بعقابها بالنسبة لهم فى حياتهم الأخرى ، والواقع أن اليقين بعاقبة المعاصى فى الدنيا والآخرة يجعل الإنسان بمعزل عن إتيان الآثام .

ومن هنا يقول الحسن رضى الله عنه : كل من عمل معصية فهو جاهل . ويقول أحد الحكماء : إن الآثام توقع الإنسان فى الشقاء ، ولا يعدل الإنسان عن السعادة التى تتمثل فى الفضيلة إلى الشقاء الذى يتمثل فى المعصية إلا إذا كان جاهلا ومن هنا : كما يقول – كانت المعصية جهلا وكانت الفضيلة معرفة .

ولقد ذكر القرآن الكريم معنى هذه الآية ليفتح الطريق أمام العصاة إلى التوبة وليحث الذين يعملون السيئات على قرع بابه تعالى بالرجوع إليه تائبين فتعمهم رحمته قال تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً) .

ويقول سبحانه :

(ثم إنّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إنّ ربك من بعدها لغفور رحيم) . (٨١)

فى تفسير قول الله تعالى :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٨٢)

ويقول : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير) .

* * *

وفى هاتين الآيتين بيان لحكمة الله سبحانه وتعالى فى إرسال الرسل واختيارهم ، وأن هذا الاختيار راجع لمشيئته وحده ، يختار الرسول من أى بلدة ومن أى بيئة ويعده للرسالة ويهيئه لها ، فليس بشرط أن يكون الرسول من أهل البلدة ورسولنا ﷺ (جعله الله رحمة للعالمين) وأرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً وأمر الله الناس جميعاً اتباعه قال تعالى :

(يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم)

ومع ذلك فلم تحرم أفريقيا من الرسل : (لقد ولد فيها موسى عليه السلام وأخوه هارون .

---

(٨٠) سورة النساء – آية (١٧) .

(٨١) سورة النحل – آية (١١٩) .

(٨٢) سورة الأنعام – آية (١٢٤) .

ووفد إليها يوسف ويعقوب والمسيح عليهم السلام ، ومن قبل ذلك وفد إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

وبعد ، فلعل أفريقيا قبل الرسالة المحمدية حوت كثيراً من الرسل ، إذْ لم يرِدْ عنهم حصر جامع فى القرآن الكريم ، ولم يذكر سجل كامل بأسمائهم وتواريخهم :

قال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) .

وقال : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات ، وغير معروشات ، والنّخل والزّرع مُختلفاً أُكله والزيتون والرُّمّانَ مُتشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقَّه يوم حَصاده ولا تُسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) (٨٣)

* * *

ويقول الرسول ﷺ ، فيما سقت السماء العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر وحديث رسول الله ﷺ ، يدل على العموم ، والآية الكريمة تؤيد المنهج نحو العموم ، وعلى أساس العموم المأخوذ من الآية ومن الحديث ، تكون الزكاة واجبة فى كل ما أنبتته الأرض وهذا هو رأى أبى حنيفة الذى يعمم الزكاة فى جميع ما تنبته الأرض لا يفرق فى ذلك بين الخضراوات والفواكه – والحبوب ، وهو الرأى الذى نرتضيه أما فيما يتعلق بالمواشى التى تجب فيها الزكاة فهى : الإبل ، والبقر ، والغنم ، وتجب الزكاة فيها إذا توافرت فيها الشروط الآتية :

أن تبلغ . وأن يكون قد حال عليها الحول .

فى الأعراف :

الأعراف : هى الأشياء المشرفة ، والمراد بها هنا المكان المشرف الذى بين الجنة والنار ، أما أصحاب الأعراف فهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفتهم حسناتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار ، فهم ليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، ولكن الله تعالى سيدخلهم الجنة بفضله ورحمته ، فلأنه ليس فى

(٨٣) سورة الأنعام – آية (١٤١) .

الآخرة من دار سوى الجنة أو النار ، فهم - بعدل الله - فى مكان بين الجنة والنار وهم - بفضله يكون مآلهم الجنة .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاتهم أكثر بواحدة ، دخل النار وأن الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل من إيمان ، ومن استوت حسناته وسيئاته ، كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ، سلام عليكم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (٨٤)

* * *

يخبر الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة أن أهل القرى وهم الناس فى مجتمعاتهم - صغيرة كانت تلك المجتمعات أو كبيرة وقديمة كانت أو حديثة - لو أنهم التزموا الإيمان واتبعوا قاعدة التقوى لوسعنا عليهم الرزق وزودناهم من الخير فى كل شىء ، وليست البركات خاصة بالرزق المادى وإنما تتضمنه وتتجاوزه إلى الرزق المعنوى ، فتكون البركات فى صورة الرعاية الإلهية للإنسان المؤمن المتقى ، وفى صورة العناية بالله ، إن الله مع المتقين ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ، ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وسنة الله سبحانه أن من كان لله كان له ، ومن كان مع الله كان الله معه ، ومن تقرّب إلى الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً ، ومن تقرب إليه سبحانه ذراعاً تقرب منه باعاً ، ومن أتاه يمشى أتاه تعالى هَرْولة ، ولكن أهل القرى لم يلتزموا سنة الله التى وضحها على لسان رسله ولم يتبعوا هديه وكذبوا برسله فأصابهم الله بما يتناسب مع أعمالهم من الشقاء والعذاب (من عَمِل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلّام للعبيد) .

(ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً) .

---

(٨٤) سورة الأعراف - آية (٩٦) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين) . (٨٥)

* * *

إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء بل عملهم مردود ودعاؤهم غير مستجاب ، وعلى ذلك فلا مجال لدخولهم الجنة وهم عن رحمة ربهم محجوبون لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم ، وإنما تطرد من على أبواب علِّيين إلى أسفل سافلين .

أما الذنب الذى ارتكبه هؤلاء الذين أوعدهم الله بهذا الوعيد فإنه الشرك بالله ، والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك بالله سبحانه وتعالى له أثره على المجتمع وعلى الإنسانية فى غاية الخطورة ، وخصوصاً على الجانب الأخلاق من المجتمع .

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أمثال هؤلاء فيقول :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون) .

فهم قوم أتبعهم الشيطان ووجههم وسيرهم إلى الشر والفساد فكانوا من الضالين ، ولو شاء الله لرفعهم وهداهم إلى آياته ، ولكنهم هم الذين اتجهوا إلى الشر وأخلدوا إلى الأرض بدل اتجاههم إلى السماء وإلى الهداية والصلاح والإصلاح . وآيات الله واضحة ولكنهم عاندوا وكفروا وأشركوا فنالوا مقت الله وغضبه فى الدنيا والآخرة .

فى تفسير قول الله تعالى :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون) .

* * *

المقصود بأمة محمد ﷺ الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه – وهم الذين يستحقون أن يُضافوا إليه ويتشرفوا بالانتساب له والاندراج تحت لوائه . . وهم أمة الإجابة .

أما غير المسلمين فى عصره وبعد عصره فلا يستحقون الانتساب إليه ولا يجوز تكريمهم

(٨٥) سورة الأعراف – آية (٤٠) .

بإضافتهم إليه ، ولم يضفهم الرسول ﷺ إليه حينما تحدث عن أمته ، قال ﷺ : كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . . .

ولكنهم يعتبرون من أمة الدعوة حيث شاهدوا أنواره وأنوار ما جاء به فأعرضوا عن الحق واستكفوا عن اتباعه ، ومن هنا عبر عنهم الرسول ﷺ : باسم الأمة ولم يعبر عنهم بأمتى فقال ﷺ :

« والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بالذى جئت به إلا حرم الله عليه الجنة » .

فسمى اليهود والنصارى أمة ولم يقل من أمتى يهودياً أو نصرانياً .

ومن هنا فإن الفرق واضح بين أمة محمد – أى من آمن به – وغيرها من الأمم ممن لا يؤمن . .

فى تفسير قوله تعالى :

(وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه أنِ اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً) (٨٦)

* * *

أما قوله تعالى : (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً) فإنه خبر عن بنى إسرائيل ، يقول الله تعالى فيه : إنه سبحانه ، صيّرهم اثنتى عشرة قبيلة ، فأصبحوا فى تفرقهم وتعددهم كالأمم . . أما هذا العدد بالذات ، فإنه يرجع إلى أن أولاد يعقوب عليه السلام كانوا اثنى عشر ولداً ، فكانت القبائل اثنتى عشرة قبيلة ، كل واحدة منها تنتمى إلى واحد منهم .

فى قول الله تعالى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) (٨٧)

* * *

ويقول الله سبحانه فى تعريف المؤمنين :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) .

---

(٨٦) سورة الأعراف – آية (١٦٠) .

(٨٧) سورة الأعراف – آية (٢٠٤) .

والأمر بالاستماع ، والإنصات ، اللذين تفيض بسببهما رحمة الله على السامع المنصت ، إنما كان من أجل التدبر للمعانى الكريمة التى انطوت عليها الآيات القرآنية ومن أجل الاتعاظ بها ، والتزام الحدود التى سنتها ، والقواعد التى أتت بها ، وهى لكل ذلك إذا تليت على المؤمنين زادتهم إيماناً .

وكلام الله سبحانه وتعالى له أثره الطيب فى إثارة خشية الله عند المؤمنين الصادقين يقول الله سبحانه : (الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) .

والله سبحانه وتعالى يبين أن الخشية تتحقق عند المؤمنين الصادقين نتيجة لتلاوة القرآن أو سماعه ، حتى إنه لو نزل القرآن على جبل لتمثل فيه الخشوع ، بل يصل الخشوع به إلى درجة التصدع يقول سبحانه : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

فالواجب إذن التزام الهدوء والصمت مع التدبر والتأمل .

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه أعظم من كل ما سواه ، وأننا فى جو القرآن إنما نكون فى جو إلٰهى ، أى أننا – قارئين أو مستمعين – إنما نناجى الله سبحانه ، أو ننصت إليه ، فالواجب ألا يكون تأثرنا بغيره ، وألا يكون انتباهنا إلى ما سواه ، ولا بأس من أن ينطق الإنسان مختاراً أو مضطرًّا عندما يمتلئ قلبه بمعنى من المعانى فى سموه وجلاله ، أو بكيفية من كيفيات الأداء التى تناسب المعنى ، لا بأس بأن ينطق متفاعلا مع الجو القرآنى بسبحان الله ، أو جلّ جلال الله ، أو سبحان من هذا كلامه ، أو أستغفر الله ، أو تبت إلى الله ، أو اللهم قِنى عذابك ، أو اللهم أفض على من رحمتك .

وقد كان الرسول ﷺ يفعل ذلك .

ذلك هو موقف المؤمنين عند تلاوة القرآن أو عند سماعه .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) (٨٨)

* * *

(٨٨) سورة الأنفال – آية (٢) .

فلا ينبغى للمستمع ولا يجوز للمستمعين ارتفاع الأصوات وإحداث الصخب عند تلاوة القرآن ، ولا يتأتى لهم إلا الصمت والهدوء والسكينة ليزدادوا إيماناً ، وتخشع قلوبهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله يقول سبحانه :

(الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) . فإذا ازداد إيمان السامع للقرآن حينما يُتلى ، واقشعر جلده ، ولان قلبه ، واستجابت أعضاؤه لذكر الله ، لا يجد مجالا للصياح ولا لكلمات الاستحسان ، بل تنهمر دموعه ويحسن الاستماع والاستجابة لكل ما يتلى ، يقول تعالى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

وكما يجب على السامع هذا فإنه يجب على القارئ أيضاً أن يعلم أنه حينما يجلس للقراءة فإنه يناجى الله تعالى بكلامه ، فيحسن الجلوس بين يديه ، ويتلو كتاب الله وعليه السكينة والوقار الذى يناسب جلال الله وعظمته ، فإن ما يتلوه حجة عليه وله ، فلا أقل من أن يفرّ من أن يكون عليه ليكون له ، وليكون بحسن أدائه وخشوعه حالة قراءته مع السَّفَرة الكرام البررة .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة » .

وقال ﷺ : « اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وسائل النصر فى القرآن الكريم رسمها الله سبحانه فى عبارة موجزة بقوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[٨٩] .

* * *

وهذه الآية الكريمة صريحة فى القوة المادية ، إنها تعنى أعدوا لهم القوة المادية البحرية من مدرعات ومدمرات .

وأعدوا لهم القوة البرية من مدافع ودبابات .

وأعدوا لهم القوة الجوية بكل ما تستطيعون من قوة ، هذا من الناحية المادية ، والآية الكريمة صريحة أيضاً فى الإعداد المعنوى ، وقد كان رسول الله ﷺ يقوم فى هذا الإعداد المعنوى بأمرين :

الأول : بعث الثقة بالتفاؤل فى نفوس المؤمنين .

---

(٨٩) سورة الأنفال - آية (٦٠) .

والثانى : رعاية وتدبير يفتّان فى عضد الأعداء ويخزلانهم ما أمكن ذلك .

فوسائل النصر هى : الإعداد المادى ، والإعداد المعنوى ، والتدبير المحكم لتوهين الأعداء .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (٩٠)

* * *

يروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما نزلت : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر ما خفف عنهم ، أى أن ترتيب الحكم سار على ترتيب الآيتين .

وكان المسلمون فى أول أمرهم قليلى العدد ، والمشركون كثيرى العدد ، فكان على المسلم أن يصمد لعشرة من الكفار - ثم كثر عدد المسلمين وتعددت تبعاتهم وخفف الله عنهم هذه المسئولية الشديدة فى الجهاد . فأصبح الفرض على المسلم أن يصمد لاثنين من الكفار ولو صمد لأكثر زاد ثوابه . . . وهكذا .

وذلك ليتأتى الجهاد لأكبر عدد ممكن من المسلمين وتتوزع تبعاته عليهم . وفى الآيات الأمر بالحض على القتال والتعبئة الروحية والنفسية للمقاتلين ، ليكون قتالهم عن عقيدة ، وبيان أثر الدعاية والتعبئة فى الحروب .

وفيها : التذكير بصمود السابقين حيث كان الفرض عليهم أن يصمد الواحد منهم لعشرة من الكفار . . وقد قاموا بذلك الفرض ، فصمد الواحد منهم لأكثر من عشرة كما فى غزوة مُؤتة وغيرها من الغزوات .

وفيها : أن الصبر أساس النصر ، الصبر على أعباء القتال ، وعلى ما ينتج عنه من خسائر ، والصبر فى مواجهة دعايات الأعداء .

---

(٩٠) سورة الأنفال - آية (٦٥) .

فى سورة براءة والبسملة

تسمى هذه السورة الكريمة سورة العذاب ، لأن العذاب - عقاباً للمنافقين والمشركين - قد ذكر فيها كثيراً ، وتسمى المبعثرة ، لأنها بعثرت ، أى أظهرت وكشفت أسرار المنافقين وعوراتهم ، وتسمى المدمومة ، أى المهلكة للمنافقين ومن لف لفهم ، وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى عن الجاحدين المنكرين من ثمود حينما كذبوا صالحا وكفروا برسالته :

(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) . . أى أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وتسمى أيضاً المخزية لأنها يكشف أسرار المنافقين قد أخزتهم ، ولها أسماء أخرى تنحو هذا النحو من بيان أمر المنافقين حتى لقد فضحهم فى سفور لا لبس فيه .

وموضوعها إذن لا يتناسب هو والرحمة أو الرأفة ، ومن أجل ذلك لم يبدأها الله سبحانه : ببسم الله الرحمٰن الرحيم . .

وهل يرى المفسرون هذا التعليق ؟

لقد عبر عن ذلك أسلافنا رضوان الله عليهم خير تعبير .

يروى صاحب محاسن التأويل ، وروى الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس قال : سألت على ابن أبى طالب : لِمَ لمْ تكتب فى براءة البسملة ؟

قال : لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف ، أى فنزولها لرفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة . ولذا قال ابن عيينة :

اسم الله سلام وأمان ، فلا يكتب فى النبذ والمحاربة ، قال الله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) ، قيل له فإن النبى ﷺ : قد كتب إلى أهل الحرب البسملة . . قال : إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم ولم ينبذ إليهم ، ألا تراه يقول : « سلام على من اتبع الهدى » فمن دعا إلى الله عز وجل ودعى إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى فظهر الفرق .

وكذا قال اليهود : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتح بالتسمية .

فى تفسير أول سورة التوبة

إن رسول الله ﷺ لم يأمر بكتابة البسملة فى أول سورة التوبة ، لأنه لم ينزل عليه وحى بذلك .

والحكمة فى أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل الوحى بكتابة البسملة هى كما رواه الحاكم عن رسول الله ﷺ بما أن البسملة أمان ، وسورة التوبة نزلت لرفع الأمان ، وقد نزلت سورة التوبة ، لنقض عهد الكفار ، وفضيحة المنافقين الذين هم أخطر على الإسلام من الكفار الظاهر كفرهم ، فهى سورة عذاب .

والبسملة رحمة ولا تجتمع رحمة مع عذاب ، وسورة التوبة تسمى : السورة الفاضحة لفضيحة المنافقين بها .

وسورة العذاب وكل ذلك يتنافى مع ما تشعره البسملة من الرحمة ولذلك لم تكتب فى أولها .

فى حكم التشاؤم

نهى القرآن الكريم عن التشاؤم ، وبين أن الشؤم من التشاؤم ، حيث حكى عن رسل المسيح عليه السلام فى سورة (يس) ردًّا على المتشائمين : (قالوا طائركم معكم)

وقال ﷺ . لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر .

فقد كان الناس يتطيرون ويتشاءمون إذ كانوا يخرجون الطير فإن طار إلى الشمال تشاءموا وإن طار إلى اليمين تيامنوا وكانوا يتشاءمون من شهر صفر ، فعقد القران فى أى شهر وفى أى يوم جائز لا كراهة فيه ولا حرمة ، فهذا الاعتقاد لا أصل له فى الدين ، بل هو من قبيل الخرافات التى يجب أن تحارب .

لأن من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله خرج عن الدين ، لأن التحريم والتحليل المرجع فيه إلى الكتاب والسُّنة ، وعلى الأئمة العلماء البيان فقط .

ولقد ضرب الله مثلا لنا فى ذلك عن أعمال الكفار حيث كانوا يحلون ويحرمون بعض الشهور حيث قال الله تعالى يحذرنا من الوقوع فيما وقعوا فيه :

(إنما النَّسىءُ زيادة فى الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدَّة

ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله . زُيِّن لهم سوءُ أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) . (٩١)

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة) (٩٢)

* * *

الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ذكرت فضل الجهاد فى سبيل الله وبينت فضل الشهداء وما لهم من المنازل والدرجات عند ربهم ، لم تفرق بين شهيد فى عصر النبوة وشهيد متأخر عن ذلك العصر .

والآية الكريمة التى تقرر تلك الصفة الإلهية الرابحة التى عقدها الله تعالى مع المقاتلين فى سبيل الله الذين يَقْتُلُون ويُقْتَلون فاشترى منهم ربهم عز وجل أنفسهم وأموالهم وباعهم الجنة ، لم تفرق بين شهيد مع رسول الله وشهيد لم ينل شرف الصحبة لرسول الله ﷺ . يقول تعالى :

(إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَن أوْفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) .

وآيات سورة آل عمران التى تبين أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فَرِحُون بما حباهم به ربهم من النعم عامة شاملة لشهداء عصر النبوة وما بعده من عصور ، فقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

وقد يكون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة ما يؤكد أن هذا الفضل عام بالشهداء فى كل العصور ، وليبقى الحافز على الدفاع عن الدين والاستشهاد فى سبيل عزة الإسلام ودفع العدوان عن أرضه وحماه .

فإن المجاهد فى سبيل الله يبذل دمه وماله ويصد العدوان عن أرضه ودينه لعلمه بأن ما عند الله للشهيد خير وأبقى .

ومما ذكره القرطبي فى سبب نزول هذه الآيات قوله : وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ، لما أصيب إخوانهم بأحد : جعل الله

---

(٩١) سورة التوبة – آية (٣٧) .

(٩٢) سورة التوبة – آية (١١١) .

أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا هنا أنّا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب ، فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم قال : فأنزل الله : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً) . . إلخ وروى بقى بن مخلد عن جابر قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال : « يا جابر ما لى أراك منكساً مهتما ؟ قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين ، فقال ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك ، قلت بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول ، وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب فقال : له يا عبدى تمنّ أعطك قال : يا رب ردنى إلى الدنيا فأُقْتَلُ فيك ثانية ، فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال : يا رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . .) الآية . فقولهم من يبلغ إخواننا عنا إنّا أحياء فى الجنة نُرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد . وفى رواية أخرى ليزدادوا فى الجهاد رغبة ولا ينكلوا عند الحرب ، وقول الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم ونزول هذه الآيات بهذه الصيغة يرجح القول بأنها عامة فى جميع الشهداء .

وأما العمل الذى يجب أن يقوم به المقاتل فى سبيل الله حتى ينال الشهادة فهو أن يكون خروجه للجهاد فى سبيل الله مع صدق العزم وإخلاص النية لله سبحانه ، فإنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . والرسول ﷺ يقول : لا يكْلم أحد فى سبيل الله – والله أعلم بمن فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشخب اللون لون دم والريح ريح مسك ، وألا ينهزم ، ولا يتقهقر وأن يظل يقاتل حتى يُقتل فى سبيل الله صابراً محتسباً ، مُقبلا غير مُدبر .

فالله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومَنْ يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

روى مسلم عن عبد الله بن أبى قتادة أنه سمعه يحدث رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إن قُتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر .

ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله أتكفر عن

خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك .

وبين فضل الله سبحانه على المجاهد فى سبيله الذى يخلص النية ويصدق فى عزمه فى طلب الشهادة له أنه يعطيه درجة الشهيد وإن مات على فراشه .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه .

وعن سهل بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف حدثه عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه ، أما من يخرج مع المجاهدين مُقاتلا فى صفوفهم رياءً وسمعة أو لغرض دنيوى فلاحظَّ له فى نيل فضل الشهيد وإن قُتل .

فقد جاء فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى أن رجلا أعرابيًا أتى النبى ﷺ ، فقال يارسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فَمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله .

وعن أبى موسى قال : سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حجة ويقاتل رياء أىّ ذلك فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، وقال ﷺ « مَن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومَن قُتل دون عِرضه فهو شهيد » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأوتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فيمَ عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فيمَ عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فيمَ عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار .

ومن هنا يتضح أن الكرامة التى أعدها الله للشهيد والفضل الذى خصه الله به متوقف على صدق النيّة والإخلاص لله ، والهدف الذى قاتل وقُتل من أجله ، يستوى فى ذلك الشهيد فى عصر النبوة والشهيد بعد ذلك العصر.

أما فضل الصحبة لرسول الله ﷺ فتلك درجة لم ينلها إلا من شرف بصحبته لرسول الله ﷺ وحمل معه العبء الأكبر فى نشر الدعوة والذود عنها ، والتمكين لها فجر مطلعها ، فقد كانوا رضى الله عنهم رهبان الليل فرسان النهار ، وحسبهم ما قاله القرآن الكريم فى شأنهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله ورضى عن صحابته ومتبعيهم إلى يوم الدين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (٩٣)

* * *

نزلت هذه الآية فى المتخلفين عن الرسول ﷺ فى غزوة تبوك ، وهى غزوة ندب الرسول ﷺ إليها كل قادر ، وبذل فيها الصادقون ما يستطيعون ولم يتخلف منها أحد ممن يستطيع الجهاد إلا قليلون .

قال ابن كثير (جـ ٤ ص ٥) كان المتخلفون من غزوة تبوك أربعة أقسام :

مأمورون - مأجورون : كعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن مسلمة ، وابن أم كلثوم .

ومعذورون : وهم الضعفاء المرضى ، والمقلون الذين لم يجد الرسول ما يحملهم عليه فرجعوا باكين لعدم الخروج .

وعصاة مذنبون : وهم الثلاثة : أى كعب بن مالك وصاحبيه ، وأبولبابة وأصحابه وكانوا عشرة .

---

(٩٣) سورة التوبة - آية (١١٨) .

وهذه الآية نزلت فى أبى لبابة وأصحابه فيما قاله المفسرون وما رواه أصحاب السير ، لقد ربطوا أنفسهم بسوارى (أعمدة) المسجد وقالوا لن نترك مكاننا حتى يطلقنا رسول الله ﷺ ، فلما علم الرسول بذلك قال : وأنا والله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله عز وجل هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن المسلمين ، فأنزل الله تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) وعسى من الله لتحقق الوقوع فأطلق الرسول ﷺ سراحهم وعذرهم فجاءوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال ، ما أمرت أن آخذ أموالكم فأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . .) إلخ فقبل منهم بعض أموالهم ، ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمتصدق عند التوبة من الذنب لقبول التوبة وسيلة للتطهير من الآثام والذنوب . .

فى تفسير الآية :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) (٩٤)

* * *

الخطاب فى الآية للعالم كله – فيكون المراد بقوله تعالى : من أنفسكم أى من جنسكم وأصلكم بشراً مثلكم تفهمون عنه وهو ما يتناسب وعموم الدين وشمول الرسالة .

ويتضح هذا الرأى فى قراءة عبد الله بن قسَيْط المكى ، « من أنفسهم » أى من أشرفكم نسباً وأكرمكم حسباً ، وهو ما قامت عليه الأدلة وشهدت به الوقائع .

والآية مدنية بلا خلاف وهى من أواخر آيات القرآن نزولا ، وتفسير الآية على العموم : هو أن الله مَنّ على العالم عامة وعلى العرب خاصة – بإرساله إليهم رسولا منهم يعرفونه ويرون من ملامح حياته الخاصة والعامة ما يقطع بصدقه ، ومن أهم صفاته وأظهر خصائصه رغبته الشديدة فى تخليص العالم من المشقة والعنت والهلاك بإخراجهم من ظلمات الكفر وشروره إلى صفاء الإسلام ونوره ، وحرصه الحريص على الوصول بالبشرية إلى بر الأمان فى رضا الله وطاعته وعبادته حق عبادة .

وهذا الحرص على إسعاد الآخرين ، والأسى الشديد عليهم إذا لم يخرجوا عن غيهم وما هم عليه من ضلال فإنما يدل على رحمة شاملة ورأفة متأصلة تزداد عمقاً وتقوى وأصالة بالنسبة

(٩٤) سورة التوبة – آية (١٢٨) .

للمؤمنين حيث يغذيها الحب ويغمرها الإخاء .

وفى الآية تشريف للرسول ﷺ ، وتكريم للمؤمنين ، وتبكيت للكافرين .

ولقد كان الرسول ﷺ حريصاً على هداية الإنسانية ، حزيناً لما سيصيب الكافرين نتيجة البغى والعناد ، ويمثل لنا ذلك قوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

(إنْ عليك إلا البلاغ) (أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

فى تفسير قوله تعالى :

(الر ، كتاب أحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير)

وقوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . . .) (٩٥)

* * *

ذلك أن المعنى فى الآية الأولى أن القرآن الكريم كتاب محكم فى نفسه كما تتحدث آية أخرى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

إنه محكم فى نفسه ، وهو محكم عند الله سبحانه ، وهو محكم عند الراسخين فى العلم .

ومعنى محكم هنا : أنه حق واضح مترابط ، بين الدلالة صادق الحجة ، فكل آياته محكمة إحكاماً إلهيًّا كاملا .

أما بالنسبة : لعامة الناس فإن القرآن ينقسم إلى قسمين : قسم مفهوم واضح هو ما يتعلق بالدين بمعناه العام : عقيدة ، وأخلاقاً ، وتشريعاً .

وعبر عن هذا القسم . بأنه محكم لوضوحه . وقسم يتعلق بذات الله وصفاته لا يعلم تأويله وتفسيره إلا الله والراسخون فى العلم .

أما العامة فإن مستواهم الروحى لا يرقى إلى فهمه .

وعبر عن هذا القسم بالمتشابه : أى أنه غير واضح بالنسبة للعامة من الناس ، وهو من ذلك محكم فى نفسه ، محكم عند الله ، ومحكم عند الراسخين فى العلم .

---

(٩٥) الآية الأولى من سورة هود أما الأخرى فمن سورة آل عمران آية (٧) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وما من دابَّة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودَعها ، كل فى كتاب مبين[٩٦]) .

* * *

يقول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) ويقول سبحانه : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) ويقسم سبحانه على ذلك نظراً لضعف الإنسان وقلقه فيما يتعلق بالرزق فيقول تعالى : (فوربِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون) .

هذا ومن المبادئ الدينية المقررة أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق من كل ذلك نتبين الإجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بالأجير وفيما يتعلق بالكتاب وهو : وجوب أداء الصلاة برغم كل الظروف فى أول الوقت أو فى منتصفه أو قرب نهايته إذا لم يكن بد من هذا ، ولتكن النتيجة ما تكون ، ومن اتجه إلى الله فإن الله لا يضيعه .

أما السيدة التى عليها أيام من رمضان فإنها أدرى بحالتها الصحية هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الفيصل بينها وبين زوجها إنما هو رأى الطبيب : وليس لزوجها أن يمنعها فإذا تأكدت من نفسها أو من رأى الطبيب تأكداً تاما أن حالتها تسمح فعليها القضاء ، ودين الله أسمى من أن يخضع لنزوات زوج وأعلى من أن ينحرف مع انحراف الطبائع .

فى قول الله تعالى :

(وأما الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ[٩٧]) .

* * *

هذه الآية واردة فى مقابلة الآية التى وردت فى عذاب من كفروا بالله تعالى وكذبوا رسله وهى قوله تعالى : (فأما الذين شَقُوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إنَّ ربَّك فعّال لما يريد) .

وهى تنص على أن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هم السعداء عند

---

(٩٦) سورة هود - آية (٦)

(٩٧) سورة هود - آية (١٠٨) .

الله عز وجل وأنهم ماكثون فى الجنة خالدون فيها ، لا تنقطع سعادتهم ولا يفنى نعيمهم .

أما قوله تعالى : (ما دامت السمٰوات والأرض) فإنه مثل أُريد به تأبيد خلود المؤمنين فى الجنة ، وأنهم لن يفوتهم وقت من الأوقات إلا وهم مستمتعون فيه ، بنعيم الله فى جنته ، وليس المراد به الاستثناء وذلك كقول العربى مثلا : سأفعل كذا ما لاح كوكب أو ما أضاء فجر ومعناه أنه لن يترك فعل ذلك الشيء أبداً وليس معناه يفعله كلما لاح كوكب أو أضاء فجر وأنه يترك فعله فى غير ذلك كلا .

وأن قوله تعالى : (عطاءً غير مجذوذ) يؤيدهذا التفسير ، فإن معناه عطاء من الله تعالى ، لا يفنى ولا يبيد ، والآيات فى القرآن كثيرة مستفيضة فى تأييد هذا المعنى وفى إثباته .

فى إن فعل الخيرات يذهب السيئات بدليل قول الله سبحانه وتعالى :

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلفاً من الليل ، إن الحسناتِ يذهبْن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين[٩٨]) .

* * *

إن الطريق الشرعى الذى رسمه الله سبحانه وتعالى ، هو أنه إذا اتجه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الخطوة الأولى إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، وكيفية التوبة الخالصة النصوح بيّنها الإمام النووى فيقول :

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط ، أحدها : أن يقلع عن المعصية . والثانى أن يندم على فعلها ، والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه ردّه إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كان غيبة استحله منها .

وقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، وفتح أبواب رحمته لكل من يتجه إليه ، يقول سبحانه :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم[٩٩]) .

---

(٩٨) سورة هود – آية (١١٤).

(٩٩) سورة الزمر – آية (٥٣) .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى : وفى دقة دقيقة داعياً إليه عباده . « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم »

فالتوبة هى الخطوة الأولى لمن أتى من المعاصى ، ويأتى معها وبعدها فعل الخيرات فيكون إن شاء الله العفو والمغفرة والرحمة . ويقول الله تعالى :

(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

هذا وإن ارتكاب كثير من المعاصى ، فإن فعل الخيرات مكفر لها بشرط : الإقلاع عن الذنب والندم على ما فات ، والعزم على أن لا يعود إليه أبداً فإن تحقق منه ذلك فلا شك أن فعل الخيرات يكفر ما ارتكبه من معاصى وصدق الله العظيم إذ يقول :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) .

فالتوبة الصادقة والعمل الصالح يبدل الله بذلك سيئاتهم حسنات ويغفر ما تقدم من ذنب .

ومما لا شك فيه أن باب الله مفتوح للتائبين والله يحب التوابين . . .

فى قصة يوسف عليه السلام

إن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع تتسلسل فى معناها على الوضع التالى :

لقد عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك ، واقتنع الملك بأن هذا التعبير هو الصواب فقال : ائتونى به ، فلما جاءه رسول الملك يدعوه لمقابلته أحب يوسف أن يلقى الملك وهو برىء من كل شبهة فحمل الرسول رسالة الملك قائلا :

(ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إنّ ربى بكيدهن عليم) ورجع الرسول إلى الملك وبلغه الرسالة فجمع الملك النسوة وسألهن :

ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

فرد النسوة قائلات :

حاش لله ما علمنا عليه من سوء .

وكانت امرأة العزيز حاضرة حينئذ فقالت : (الآن حصحص الحق) – أى تبين الحق وظهر وبرز – ثم اعترفت قائلة : (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) .

وهذا الاعتراف منها علله بقولها : (ذلك ليعلم أنى لم أخُنْه بالغيب) أى ليعلم زوجها الحقيقة وهى أن المسألة لم تكن إلاّ مراودة وأن الجريمة الكبرى لم تقع .

ثم استمرت تقول : وما أبرئ نفسى فإنها قد تمنت وأحبت وأرادت والنفس دائماً أمّارة بالسوء إلا من عصم الله (وما أبرئ نفسى إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم)

كل هذا كان بحضرة الملك ولم يكن يوسف إذ ذاك حاضراً وإنما أحضره الملك بعد ذلك آمراً من جديد (ائتونى به أستخلصه لنفسى) وكلمة : أستخلصه لنفسى تدل دلالة واضحة على أن الملك اقتنع اقتناعاً تامًّا ببراءة يوسف عليه السلام .

فالآيات المسئول عنها من كلام امرأة العزيز ، وليست من كلام يوسف عليه السلام كما أوضحنا .

فى تفسير قوله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم[١٠٠]) .

* * *

وهذه الآية نص صريح فى أن كتاب كل رسول الذى نزل عليه كان بلسان قومه . . فالتوراة والإنجيل والزبور كانت بلسان من نزلت إليهم . . وكان هذا اللسان هو اللسان العبرى . . أو اللغة العبرية .

ولقد كانت تكتب تلك الكتب كالقرآن . وقد وردت النصوص التى تثبت ذلك . . فموسى عليه السلام يقول الله تعالى عنه .

(وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخُذْها بقوة وأْمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها[١٠١]) .

وعن التوراة يقول تعالى :

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين . . .) إلخ

---

(١٠٠) سورة إبراهيم – آية (٤)

(١٠١) سورة الأعراف – آية (٤٥) .

وعن الإنجيل يقول تعالى :

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونورٌ ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) .

وعن الزبور يقول تعالى :

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) فالتوراة والإنجيل والزبور كانت تكتب كالقرآن ونزلت بلغات أهلها وهى العبرية . .

ومن المعلوم أن اللغة العبرية لغة بنى إسرائيل تخالف اللغة العربية فى حروفها وتختلف عنها فى طريقة كتابتها .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما يقوله تعالى مخاطبا رسول الله ﷺ :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فى تفسير قوله تعالى :

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون[١٠٢]) .

* * *

هذه آية من سورة النحل ذكرها الله تعالى فى تعداد نعمه على عباده ، ونذكر أولا مفرداتها التى هى فى حاجة إلى بيان :

الظلال : جمع ظل وهو ما يقى الإنسان من حر الشمس .

والأكنان : جمع كِنّ وهو وقاء كل شىء وستره .

والسرابيل : جمع سربال وهو ما يستر الإنسان .

والبأس : شدة الحرب .

والمعنى والله سبحانه وتعالى جعل من النعم التى أسبغها على عباده ما يستظلون به من شدة الحر من الغمام والجبال والأشجار والبيوت وغيرها مما يستظل به من حر الشمس ولفحها لولا ذلك لأهلكت الشمس الآدميين .

وكذلك من نعم الله سبحانه أن جعل لهم من الجبال أماكن يسكنون فيها ويستكنّون ويسترون

---

(١٠٢) سورة النحل - آية (٨١) .

كالكهوف والمغاور والأسراب والحصون والمعاقل التى يسترون فيها الأعداء ويعتصمون بها من كل ما يقصدهم بشرٍّ أو يريدهم بسوء .

ومن نعمه أيضاً أن جعل لهم مما خلق ثياباً من القطن والصوف والكتان والحرير ونحو ذلك يحفظهم من الحر اللافح وتدفع عنهم البرد القارس الذى يضر بأجسامهم ويقلل من إنتاجهم .

وكذلك جعل لهم مما خلق دروعاً يلبسونها ويستترون بها فتدفع عنهم قذائف العدو ورماحه عند شدة الحرب والتحام الجيش . مثل هذا الإنعام الكبير الذى أنعم الله به عليكم أيها الآدميون إنما جعله لكم ليتم نعمته عليكم فتشكروه عليها وتسلموا وجوهكم له وتبتعدون عن الشرك وعبادة غيره ، لأن من أنعم بهذا النعم الكبرى حقيق بأن يعبد وحده ولا يشرك بعبادته مع غيره .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً[١٠٣]) .

* * *

كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله ويقول : وأعوذ بك من أرذل العمر فما معنى هذا وما ضرر العمر الطويل ؟ .

أرذل العمر : أردؤه وهو الهرم والخرف ومعنى قوله تعالى : ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر ، أى منكم من يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيئاً فيصير كما كان فى أول طفولته ضعيف النية ساذج العقل قليل الفهم .

وهذه الحالة هى التى استعاذ منها رسول الله ﷺ . فالعمر الطويل بركة للصالحين وتكثير لثوابهم ، والعمر الذى انتهى بالإنسان إلى حالة يحتاج فيها إلى من يرشده ويهديه ويسوسه ويرعاه يصبح مفرغاً من المشقة الكبيرة التى يسأل الإنسان ربه أن ينجيه منها .

على أن منصب النبوة الشريف كما نعلم ومسئولياتها تتطلب من النبى ﷺ أن يكون قادراً على إدارة شئون الدنيا وتحقيق مطالب الآخرة وذلك يحتاج إلى القوة البدنية والعقلية ، والهرم المرذول يمنع من ذلك ويجعل المرء عاجزاً حتى عن قيادة نفسه ، ومن هنا استعاذ منه الرسول ﷺ .

وإن تقييد العمر بالأرذل يدل على أن من العمر الطويل ما هو خير وبركة ، ولا ينتهى بالإنسان إلى هذه الحالة المرذولة وهذا ما لم يستعذ منه رسول الله ﷺ .

---

(١٠٣) سورة النحل - آية (٧٠) .

ثم إن أرذل العمر قد يحصل لمن هو صغير السن إذا ساء خلقه وفسد عمله أو صار كما يقول الفقهاء سفيهاً ولو كان فى ريعان الشباب .

ومن هنا فإن هذه الاستعاذة ليست استعاذة من طول العمر وإنما هى استعاذة من العمر الذى لا يكون فيه عمل صالح أو قدرة على أداء ما يجب وترك ما ينبغى أن يترك .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[١٠٤]) .

* * *

كل ما هو عدل وإحسان وخير يأمر الله تعالى به . وكل ما هو فاحشة ومنكر وإفساد ينهى عنه سبحانه .

ومعاشرة الرجل لرجل مثله من الفواحش المنكرة التى لا يرتكبها إلا من انتكست فطرته وكان أخس من الحيوان فى طبعه ، لأن الحيوان لا يفعل ذلك ولا يأتيه ، ولقد انتشرت هذه الفاحشة فى قوم فأرسل الله إليهم لوطاً ، عليه السلام ليحولهم عن هذه الفاحشة المنكرة ولكنهم أصروا على ارتكابهم لها فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله بذنوبهم ونكس بيوتهم عليهم وذكر قصتهم فى كثير من سور القرآن لتكون عظة وعبرة لأمثالهم . قال تعالى فى سورة الأعراف .

(ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون.فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به . وقال بعض الأئمة وهو قول آخر للشافعى رضى الله عنه إن حكمه حكم الزانى ، فإن كان محصناً رجم وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة وعلى الجملة فإن هذه الفاحشة من الكبائر التى

(١٠٤) سورة النحل – آية (٩٠) .

يجب على مرتكبها أن يبادر إلى الإقلاع عنها والتوبة والرجوع إلى ربه والتكفير عن سيئاته قبل أن يأخذه الله كما أخذ قوم لوط بالعذاب الأليم فهو كافر لأنه أحل ما حرمه الله ، وأصبح معلوماً من الدين بالضرورة ونعوذ بالله من هذه الفاحشة التى تؤدى إلى العذاب الأليم .

فى تفسير قوله سبحانه :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون[١٠٥]) .

* * *

هذه الآية ترغيب للمؤمنين فى الإتيان بالأعمال الصالحة وبكل ما حث عليه الشرع من برّ وإحسان وتشمل الذكر والأنثى وفى هذا دليل على مسئولية كل فرد من الرجل والمرأة عن عمله ومجازاة كل منهما بالجزاء الحسن على العمل الصالح بالمساواة ، والمراد بالحياة الطيبة هو الحياة التى ينعم فيها صاحبها بطيب العيش والهدوء والطمأنينة ، والاستقرار وعدم المخاوف والأحزان .

وهذه الحياة يرى جمهور المفسرين أنها فى الدنيا ، والدنيا وإن كانت لا تخلو من بعض المنغصات إلا أن المؤمن يرزقه الله القناعة بما قسم الله له ، والرضا بما قرره وقضاه فيكون راضيا فى حياته سعيدا بها منعماً فيها ، وذلك شأن كامل الإيمان . والله سبحانه وتعالى يبين لنا أن التقوى سبب فى إخراج الإنسان من كل مأزق ومن كل هم ومن كل ضيق ، وهى سبب فى توافر الرزق وحصول الإنسان عليه من حيث لا يحتسب .

فيقول سبحانه (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، والعمل الصالح مع الإيمان سبب فى السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، والسعادة فى الدنيا هى ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها بالحياة الطيبة .

فى سبيل الدعاة :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم مبيناً سبيل الدعاة وطريقهم :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[١٠٦]) .

* * *

---

(١٠٥) سورة النحل – آية (٩٧) .

(١٠٦) سورة النحل – آية (١٢٥) .

وسبيل الداعى إلى الله سبحانه أن يكون عالماً بأمر الدعوة عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً يقول الله تعالى فى القرآن الكريم على لسان رسوله الكريم :

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

والبصيرة فى هذه الآية الكريمة تشمل الدعوة وأسلوب الدعوة وسبيل البصيرة فى الدعوة العلم بها وسبيل البصيرة فى أسلوب الدعوة الرفق والاتزان وأخذ الأمور مأخذ الروية والتعقل ، وهذه هى الحكمة .

ثم الحديث الواعظ بأحسن الطرق والأساليب التى تأخذ بالقلوب وتتعلق بها الأسماع وهذه هى الموعظة الحسنة .

وإذا اقتضت الظروف الجدل والنقاش واضطررت إليه اضطراراً ، فليكن بالحسنى ، والجدل والنقاش إنما هى المرتبة الثالثة فى الدعوة إلى الله ، وهى مرتبة لا يأتيها الإنسان إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك ، وهل فى القرآن الكريم نهى صريح عن اتخاذ الأسلوب العنيف .

يقول الله تعالى للمؤمنين : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم) .

وهذا نهْى لهم عن اتخاذ الأسلوب العنيف فى الدعوة .

ويقول الله تعالى لرسوله : (ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

وكل من خالف أوامر القرآن وأسلوب الرسول عليه والصلاة والسلام فى الدعوة فهو آثم . لأن كل دعوة فى الإسلام على غير الوجه الذى أرشدنا الله ورسوله إليه تسىء إلى الإسلام أكثر مما تنفعه فهى دعوة ضارة بالإسلام ، ثم يأتى صاحبها ويمنع من الاستمرار فيها » .

فى معنى قول الله تعالى :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير[١٠٧])

* * *

فالمسجد الأقصى موجود بنص تلك الآية الكريمة ، وكان مسرى رسول الله ﷺ إليه ، وقد تناولته أيدى الأمراء بعد الفتح الإسلامى بالتجديد تارة ، والزخرفة تارة أخرى .

وما ورد من أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هو الذى بنى المسجد الأقصى وأكمله من بعده الوليد صحيح .

---

(١٠٧) الآية الأولى من سورة الإسراء .

ولعل بناءه له كان نتيجة حتمية لتجديده تجديداً يناسب ما للمسجد من مكانة سامية فى نفوس المسلمين وغيرهم من الدول التى تتجه إليه وتستقبله فى صلاتها ودعائها كاليهود والمسيحيين.

ولما لم يتم الملك بناءه أتمه من بعده ولده.

وما نشر فى الصحف من أن بعض الدول الإسلامية دول علمانية لا يغير من جوهر المسجد الأقصى شيئاً.

فى قوله تعالى :

(وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنَّ فى الأرض مرتين ولتعلُنَّ علوًّا كبيراً[١٠٨]) .

* * *

المراد بالكتاب فى الآية الكريمة هو التوراة التى أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام ، والمعنى كما يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره ، يخبر الله تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب أى أخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علوا كبيراً : أى يتجبرون ويطيعون ويفجرون على الناس كقوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) . أى أخبرناه بذلك وأعلمناه به .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء الذين سلطهم الله على اليهودمن هم ؟ وقد وردت فى ذلك روايات كثيرة ، يقول ابن كثير : وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً (وما ربك بظلام للعبيد) ، إنهم كانوا تمردوا وقتلوا حلفاً من الأنبياء والعلماء وسواء أحدثت المرتان اللتان تشير إليهما الآية الكريمة أم حدثت أولاهما وبقيت الآخرة فإن الآية الكريمة تحدد وعيد الله لهم بأنهم إذا عادوا إلى الإفساد فى الأرض عاد الله إلى التنكيل بهم على يد بعض عباده قال تعالى : مختتماً هذه الآيات : (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا) .

ومن المؤكد تاريخيًّا أنهم عادوا إلى الإفساد فى الأرض فسلط الله عليهم من نكل بهم وشردهم وأذاقهم وبال أمرهم ، ولا يغيب عن الأذهان ما حدث بهم فى النصف الأول من هذا القرن وما يحدث من طرد العالم كله لهم ليستريح من شرهم وأخيراً وليس – بإذن الله آخراً ما حدث بهم

(١٠٨) سورة الإسراء – آية (٤) .

فى العاشر من رمضان السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ من تحطيم حصونهم المنيعة بسيناء وتيتيم أطفالهم وترميل نسائهم وبكاء رؤسائهم وما ضرب عليهم من الذلة والهوان وسيبعث الله عليهم بمشيئته تعالى – ونرجو أن يكون ذلك قريباً – من يطهر بيت المقدس من رجسهم ليعود إليه وجهه العربى المشرق ، وكلما انتعشوا وبغوا فى الأرض وأفسدوا سلط الله عليهم من عباده من يسومهم سوء العذاب ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا[١٠٩]) .

* * *

فقد ورد فى سياق آيات تحث على الإنفاق والبذل : فإن قبل هذه الآية الكريمة يحث الله سبحانه على الإحسان بالوالدين الإحسان الذى يتضمن الرعاية بجميع أنواعها قولية كانت أو فعلية ومنها الإنفاق عليهما عند الحاجة (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا) ثم يحث الله سبحانه على إيتاء ذى القربى والإنفاق عليهم والبّر بهم ويحث كذلك على إيتاء حق المسكين وابن السبيل ، ثم يرشد سبحانه إلى أن الطريقة المثلى فى كل ذلك إنما هى عدم التبذير والابتعاد عن الإسراف ، ثم يبين بعد ذلك مباشرة القانون الذى يرتضيه سبحانه لبنى آدم فيقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

وما من شك فى أن التبذير مذموم وأن الإسراف لا يقره عاقل ولكن البخل أيضاً مذموم والتقتير لا يقره المستنيرون ، يقول الله تعالى : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ويقول : سبحانه (فأما مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردّى) إن البخيل المقتر الذى يكنز الذهب والفضة لن ينفعه ما له وما كنز حينما تأتيه سكرة الموت بالحق ، وحينما يحل به القدر المحتوم يوم لا ينفع مال ولا بنون وكما حث القرآن على التزام القصد وعلى اتخاذ التوسط فى الإنفاق فإن الرسول صلوات الله عليه حث على الإنفاق على الأهل ففيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت

---

(١٠٩) سورة الإسراء – آية (٢٧) .

به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك ، وقال صلوات الله عليه « كفى المرء إثماً أن يضيع من يقوت » فالتقتير على الأسرة بحجة نهى الله سبحانه عن التبذير ليس طريق المهتدين بهدى الله الذى هو التوسط والقصد والاعتدال ، وليس من الدين فى شىء .

فى قول الله تعالى :

(وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا ، إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تَقُل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً[١١٠]) .

* * *

فى هذه الآيات الكريمة أمر الله بالإحسان إلى الوالدين بجميع أنواع الإحسان التى لا إثم فيها ، وشدّد سبحانه فى هذا الأمر بحيث أدخله مع لزوم توحيده فى العبادة تحت أمر واحد ، فإذا شعر الإنسان بأنه قد أهمل شأن والديه وكان بعيداً عنهما فعليه أن يسافر إليهما إذا استطاع وعليه أن يكتب إليهما مستسمحاً مستغفراً إذا لم يستطع ويوسط بعض معارفه إذا كان له معارف بالقرب منهما فى أن يعفوا عنه .

وتأتى التوبة من قبل كل ذلك ، وفى أثنائه ومن بعده توبة نصوحاً إلى الله سبحانه معترفاً بذنبه ، مستغفراً منه شاعراً بالندم على أنه قابل إحسانهما إليه جنيناً ورضيعاً وطفلا ويافعاً بما لا يليق بإحسانهما إليه .

ويعزم عزماً مؤكداً أنه إذا التقى بهما يكون مثالا للابن البار ، وعسى الله سبحانه بذلك أن يغفر له ويقبل توبته هذا ما لم تكن التوبة فى لحظة الاحتضار أى ما لم يغرغر ، فإن التوبة فى حالة الاحتضار لا تفيد .

فى قوله تعالى :

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً[١١١]) .

* * *

---

(١١٠) سورة الإسراء – آيتا (٢٣ – ٢٤) .

(١١١) سورة الإسراء – آية (٥٧) .

إن الوسيلة فى هذه الآية بمعنى القربة التى يبتغى بها مطلوب ، وهو الفلاح الوارد فى آخر الآية مترتباً على التقوى والجهاد فى سبيل الله وطلب الوسيلة إليه سبحانه . وتقوى الله طريقها معروف وهو الإيمان والعمل الصالح والقربات مبينة فى الكتاب والسنة ، والجهاد أمره واضح فلا إشكال فى معرفة معنى الوسيلة ولا فى معرفة ظواهرها .

وجاءت الوسيلة بهذا المعنى فى قوله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) أى يطلبون من الله الزلفى والقربة ويتضرعون إليه فى طلب الجنة .

وجاءت الوسيلة فى السنة بمعنى قول النبى ﷺ إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ثم صلوا على فإنه من صلى صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة . . رواه عن عبد الله ابن عمرو بن العاص . والوسيلة صيغة على وزن فعيلة ، مأخوذ من توسلت إليه أى تقربت قال عنترة : إن الرجال لهم وسيلة ولعلك تقصدين من سؤالك أيتها الطالبة ما تعارف عليه بعض الناس من قولهم توسلت بفلان إلى الله أو توسلت بجاه محمد أو جاه بعض الأولياء إلى الله فاعلمى أن التوسل إلى الله لا يكون إلا بالإيمان به وطاعته ، ولا يشفع لأحد إلا بإذنه سبحانه . وإذا توسل إنسان إلى الله بدعاء رجل صالح ليكون هو الداعى دليل على حب وتقدير لهذا الصالح وتقدير الصالحين وحبهم لون من ألوان الطاعة لله .

أما قول بعضهم : أسائلك بحق أنبيائك فقد منعه بعض الفقهاء ، كما قال القدورى : المسألة بحقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق .

ومهما يكن من شىء ، فإن الواجب على المسلم أن يجتهد فى عمل الطاعات فهى وسيلته إلى الله ، وأن يدعوه ، فإن الدعاء بالعبادة رابطة العبد بالله ولا بأس من سؤال أحد الصالحين أن يدعو له ربه ، فإن الطلب كله من الله ، وقد سأل الصحابة بعضهم بعضاً . .

ويجب تحسين الألفاظ وتحديدها عند الدعاء حتى لا يكون هناك اعتراض يثير الجدل ويرمى به بعض الناس بالكفر . وأخيراً أقول (إنما الأعمال بالنيّات) وما دام المقصود بالطلب هو الله وحده ، فإنه لا إشراك فى ذلك ، وليكن تعليم الجهال من العامة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتفصيل موضوع الوسيلة بين المجيزين والمانعين ليس محله هنا .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[١١٢]) .

* * *

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلسان عربى مبين كما قال تعالى : (قرآنا عربيًّا غير ذى عوج) وتحدى به العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن معارضته ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

ولقد افتتح الله سبحانه وتعالى بعض سور القرآن بحروف مثل : ألم ، المر ، حم ، حم عسق .

وذكر العلماء لهذه الحروف معانى متعددة ، فمنهم من قال : إنها أسماء للسور التى افتتحت بها . ومنهم من قال : إن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى والعرب تنطق بالحرف الواحد تدل به على الكلمة التى هو منها .

ومنهم من فوض أمر علم معانيها إلى الله سبحانه وتعالى كما ذكره الجلال السيوطى فى الإتقان قال : إنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله .

والراجح كما ذكره الرازى والمحققون : أنها إنما ذكرت هذه الحروف فى مفتتح السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأنه كلمات مركبة من حروف الهجاء التى تتألف منها الكلمات التى ينطق العرب بها ، وقد عجز الخلق عن معارضتها فلو لم يكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضته .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً . قُلِ الله أعلم بما لبثوا له غيب السمٰوات والأرض أبصرْ به وأَسْمع ، مالهم من دونه من وليٍّ ولا يشرك فى حكمه أحداً[١١٣]) .

* * *

---

(١١٢) سورة الإسراء – آية (٨٨) .

(١١٣) سورة الكهف – آيتا (٢٥ – ٢٦) .

جاء ذكر أصحاب الكهف فى القرآن الكريم فى سورة (الكهف) وقال الله تعالى لنبيه : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وهى على ما وردت به الروايات :

أنه كان بمدينة أفسوس أو طرسوس – بآسيا الصغرى – ملك اسمه دقيانوس ، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة غير الله ، ويظلمهم ، ويعذبهم إن هم خالفوا أمره ، وكان فى البلدة فتية آمنوا بربهم وقرروا فيما بينهم الفرار بدينهم من ظلم ذلك الملك وعسفه ، فخرجوا وآووا إلى كهف فى الجبل واتخذوه مأوى لهم يعبدون الله فيه ، ولم يذكر فى الروايات أنهم نبهوا أهلهم أو لم ينبهوهم ، وأغلب الظن أنهم أسرّوا إلى المقربين إليهم من أقاربهم بسفرهم حتى لا يكون فى غيابهم همّ أو غمّ لأهلهم وخاصة الآباء والأمهات ، وأهل الله يحبون دائماً أن لا يكونوا مصدر قلق وحزن لغيرهم وخصوصاً إذا كانوا أقرب المقربين إليهم وأغلب الظن أيضا أنهم وإن كانوا أخبروهم بالسفر فإنهم لم يخبروهم بالمكان .

ولقد ذكر القرآن الكريم أنهم لبثوا فى الكهف ثلثمائة وتسع سنين ضرب الله على آذانهم فى الكهف هذه المدة الطويلة ، ثم بعثهم وأخذوا يتساءلون بينهم عن المدة التى لبثوها كما قص القرآن : (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا فى كهفهم هذه المدة الطويلة قال تعالى : (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بمالبثوا له غيب السموات والأرض) .

ولقد حاول كثير من المفسرين أن يحدد مكان الكهف وأخذ يذكر البلد الذى به الكهف ، ولكن هذه المحاولات إنما هى ضرب من التخمين وليس فى القرآن ولا فى السنّة ما يحدده ، وعلينا أن نكتفى بما ذكره القرآن الكريم وإنما ذكر القصة للعبرة والعظة وهى فى هذا المجال مليئة بالمعانى ككل قصص القرآن .

فى معنى الكهف :

قيل إن هذا الكهف بشرق الأردن ، وقيل بفلسطين وقيل بالضفة الشرقية من جهة نهر الأردن .

والذين بالكهف لم ينبهوا أهلهم قبل الذهاب إليه لأن كل من كانوا بالبلد الذى هم فيه كانوا

كفاراً ، فخشية أن يمنعوا من الذهاب إلى الكهف ، وخشية التعذيب لم يخبروا أحداً بمقصدهم بدليل قول الله سبحانه وتعالى :

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً) .

وهؤلاء هم المعروفون فى التاريخ بأنهم أهل الكهف .

فى تفسير قوله تعالى :

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا[١١٤]) .

* * *

يختلف المؤرخون فى أمر يأجوج ومأجوج وأمر السد الذى بناه ذو القرنين ، فما رأى الدين فى ذلك ؟ يروى الإمام ابن حزم أن أمر يأجوج ومأجوج قد ذكر فى كتب اليهود التى يؤمنون بها والتى يؤمن بها النصارى ، ويروى أن أرسطو ذكر يأجوج ومأجوج ، وذكر السد فى كتابه (الحيوان) ويذكر ابن حزم أيضاً أن بطليموس : ذكر فى كتابه المسمى (جغرافيا) سد يأجوج ومأجوج ثم يقول ابن حزم .

« واعلموا أن ما كان فى عنصر الإمكان فأدْخَلَه مُدْخلٌ فى عنصر الامتناع بلا برهان فهو كاذب مبطل ، جاهل أو مجاهل ، لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره » .

ويقول السيد محمد جمال الدين القاسمى فى تفسيره قال بعض المحققين اعلم أنه كثيراً ما يحدث فى الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضى حتى تصير كالجبال وهذا أمر مشاهد حتى زمننا هذا . فإذا سلم أن سد ذى القرنين المذكور فى هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره ولا يوجد فى القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة ومعنى قوله تعالى :

---

(١١٤) سورة الكهف - آية (٩٤) .

(هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكّاء)

معناه : أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه ، لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن متانته وصلابته لا يمكن أن تقاوم مشيئة الله القوى القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله ، ولكن أجل السد له فى المشيئة الإلهية حد ينتهى إليه فإذا حان الموعد المضروب فى المشيئة الإلهية فإن هذا السد لا يقف لحظة واحدة أمام قدرة الله .

بل يدكه دكًا فى لمح البصر ا.هـ.

والذى يفهم من القرآن : أن يأجوج ومأجوج أمتان أو قبيلتان كبيرتان تفسدان فى الأرض بالنهب والسلب والإغارة المستمرة على من جاورهما من الأمم ، وليس فى هذا الأمر غرابة ، فهو موجود فى كثير من القبائل أو الأمم الموجودة فى عصرنا الراهن ولما وصل ذو القرنين إلى من يجاور القبيلتين ورأوا منه القوة والحكمة والعلم والاستعداد لعمل الخير وجهوا إليه الرجاء فى أن يقيم بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا منيعاً فى مقابل أجر يعطونه له ، فامتنع عن أخذ الأجر وقال : (ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) .

فى تفسير قول الله سبحانه :

(إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا[١١٥]) .

* * *

فالآية تفيد أن دخول الجنة غاية للإيمان والعمل الصالح ، والإيمان هو التصديق بوحدانية الله وبصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه .

والعمل الصالح هو العمل بشرائع الإسلام وأداء أركانه واتباع ما جاء به الرسول ﷺ واجتناب المنهيات لقوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَوْنَ عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريماً) .

فمن أتى بذلك المذكور من الإيمان والعمل الصالح واجتناب المنهيات دخل الجنة ، وأول ما يبدأ به مرضاة الله تعالى ، ودخوله الجنة إنما هوبالتوبة الخالصة النصوح ، التوبة الخارجة من أعماق القلب المؤمن ، والتوبة هى أولى الخطوات للسالك إلى الرشاد والهداية ، ومن أجل ذلك حث الله عليها كثيراً فقال سبحانه فى حديث قدسى :

---

(١١٥) سورة الكهف – آية (١٠٧) .

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » وأمر سبحانه وتعالى بها فى القرآن الكريم قائلا :

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وبعد التوبة يكون العمل الصالح ، وذلك أن التوبة تضع الإنسان فى مرتبة البراءة فتكون صحيفة أعماله بيضاء ويأتى بعد ذلك العمل الصالح ، ولقد رسم الله الطريق لدخول الجنة فى أسلوب محكم فيه مجال للرجاء ، وفيه وعد ووعيد ، وفيه بشرى النجاة للذين اتقوا فقال :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) إلى قوله تعالى : (ولا هم يحزنون[١١٦]) .

معنى قوله تعالى :

(وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضيًّا[١١٧]) .

* * *

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله قوله : (وإن منكم إلا واردها) قال : الصراط على جهنم ، مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة ، كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون « اللهم سلم سلم » .

يقول ابن كثير : ولهذا شوهد فى الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبى سعيد ، وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم .

ويكون إذن معنى الورود فى الآية الكريمة : هو المرور على الصراط والصراط على جهنم ، وليس المراد دخول النار بالفعل .

ولقد روى الإمام أحمد ، رضى الله عنه ، بسنده عن حفصة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

إنى لأرجو ألاَّ يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية ، قالت حفصة : أليس الله يقول :

---

(١١٦) سورة الزمر - الآيات من (٥٣ - ٦١) .

(١١٧) سورة مريم - آية (٧١) .

(وإن منكم إلا واردها) ؟ فقال رسول الله ﷺ .

(ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيًّا) .

وهذا هو رأى قتادة أيضاً : يقول قوله : (وإن منكم إلا واردها) : قال هو الممر عليها . أما قوله تعالى : (كان على ربك حتماً مقضيًّا) فقد فسرها ابن مسعود بقوله : قسماً واجباً وفسرها مجاهد بأنها قضاء حتم .

فى تفسير قوله تعالى :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ فإمّا يأتينكم منى هُدى فمن اتبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى[١١٨]) .

* * *

فى هذه الآيات مقارنة بين من اتبع الهدى ومن أعرض عنه ، إن من اتبع الهدى فلا يضل عن طريق الحق ومتابعة الشرع ولا يشقى مهما نزل به فى الدنيا ، إنه راض قانع ، فى نضاله وكفاحه ، مستسلم لله سبحانه وتعالى ، شرح الله صدره بالإيمان وطمأنه بالتقوى والذكر : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

أما من أعرض عن نداء الحق وتجاهل أوامر الشرع وسار فى حياته بلا مرشد من الدين ولا دليل من الهدى فإنه – مهما كان غناه – ساخط ، متبرم ، قلق غاضب ، حسود ، حقود . وقد يكون كسبه حراماً وهو لا يهتم .

ويعاقبه الله تعالى فى الآخرة على ذلك بالعمى فلا يبصر طريقه ، ويسير على غير هدى ، إنه لا يبصر حجة ولا يستطيع دفاعاً عن نفسه .

ويتساءل كأنه لا يعرف أو لأنه نسى من هول ما حصل له : (ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) . ويكون الجواب بما يفيد : لقد كانت الآيات الإلٰهية أمامك فهل أبصرتها ؟ وهل سرت على هداها أو تعاميت عنها ؟ إن الجزاء من جنس العمل ، والعمى فى القيامة هو عمى البصيرة ، هو الحيرة والتخبط وعدم الاهتداء إلى سبيل النجاة .

---

(١١٨) سورة طه – الآيات من (١٢٣ – ١٢٦)

وهذا الجزء ليس خاصًا بفرد دون فرد . إنه لكل مسرف ينسى الدين وينغمس فى الدنيا إنه لكل من لا يهتم إلا بالمادة ويتناسى القيم والأخلاق .

إن المادة وحدها لا تحقق إلا الشقاء فى الدنيا والقلق والاضطرابات ، وفى الآخرة عذاب أشد وقلق عظيم واضطراب أكبر ، حيث لا نهاية لما يكون فيه الإنسان والآيات بعد ذلك وقبله إنذار وتحذير لكل من يعرض آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، فى الكتاب والسّنة ، وفى كل ما يحيط بالإنسان ، فيكفر أو يغش .

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) .

فى تفسير قوله تعالى :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون[١١٩]) .

* * *

يقول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون.الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وقد رأى رسول الله ﷺ رجلا يحرك يده ويضعها على لحيته وهو فى الصلاة فقال :

لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، وأنه لمن البديهى أن الصلاة فترة من الصلة بالله ينبغى أن تكُونَ فى جوها هادئاً وأن تبتعد عن كل ما يشغل عن المناجاة مع الله سبحانه .

فإذا عرض للمصلى شىء بعد أخذ الاحتياط الواجب فليقل : سبحان الله . ويكررها إذا احتاج الأمر إلى زيادة التنبيه ، وذلك إذا كان المصلى رجلا ، فإذا كان المصلى امرأة صفقت ، وذلك لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« التسبيح للرجل والتصفيق للنساء فى الصلاة » ومع ذلك فإنه لو رفع المصلى صوته بالقراءة أو ببعض أذكارها لإسكات الأولاد أو التنبيه على أمر من الأمور فصلاته صحيحة ، ولكن الأفضل أتباع تعليم الرسول ﷺ .

فى شرح قوله تعالى :

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون[١٢٠]) .

* * *

(١١٩) سورة المؤمنون - آيتا (١ ، ٢) .

(١٢٠) سورة النور - آية (١٩) .

إن الذى يساعد على أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا إنما هو محب لذلك ، فهو داخل فيمن توعدهم الله سبحانه بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة لأنه أعان على الزّنى ومهد سبله واتخذ من الإعانة عليه حرفة ووسيلة إلى الكسب .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ نهى عن مهر البغى ، أى أخذ الأجرة على الزّنى أو استخدام النساء لإدرار الربح عن هذا الطريق المشين ، وصاحب المنزل ممن يعيشون فى الأرض فساداً ومن الواجب على أهل الحى مضايقته ومقاومته ، ومن الواجب ردعه عن هذا الفعل المشين .

وأما من جعل فندقه حانة لشرب الخمور فهو أيضاً آثم وعامل ومعين على الفساد ، وهو أيضاً ممّن لعنهم الرسول ﷺ ، ومن الواجب ردعه ومقاومته ، وهو داخل فيمن لعنهم الله ورسوله بسبب الخمر .

فى تفسير قول الله تعالى :

(الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة . . [١٢١]) إلخ .

* * *

شبه الله تبارك وتعالى نوره فى السموات والأرض كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة لفرط صفائها وصفاء ما بها كأنها كوكب درىّ مضىء إضاءة قوية .

فإذا اجتمع نوران : نور المصباح ، ونور الزجاجة التى تشبه الكوكب الدرىّ فى مكان يحصره ، كالمشكاة التى تكون مدورة لوضع المصباح بها ، كان النور أشد ما يكون ، وهو مثل ورد للتقريب فقط ، وإلا فنور الله عزّ وجل فى السموات والأرض لا يشبهه نور .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا) [١٢٢]

* * *

إن هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان هى أول الآيات المتتالية التى يعرّف الله سبحانه وتعالى فيها أوصاف عباد الرحمن .

---

(١٢١) سورة النور - آية (٣٥) .

(١٢٢) سورة الفرقان - آية (٦٣) .

والجاهلون فى الآية الكريمة لايقصد بهم غير المثقفين ، كلا ، وإنما يقصد بهم السفهاء . . والجهل يطلق أحيانًا ويقصد به عدم العلم ، وهذا المعنى هو الشائع لكلمة الجهل ولكلمة الجهلاء .

وقد تطلق ويراد بها السّفه ، وهذا هو ماأراده الشاعر فى قوله :

ألا لايجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جَهْلِ الجاهلينا

وهذا المعنى هو المعنى المراد من كلمة « الجاهلون » التى وردت فى الآية الكريمة فهم السفهاء وقليلو الأدب .

وهؤلاء لما فى فطرهم من إفساد ، ولما فى نفوسهم من انحراف يتعرضون للفضلاء بالأذى غير مبالين بالألفاظ ينطقون بها ، أو الأفعال التى تصدر عنهم ، وموقف عباد الرحمن منهم ليس هو موقف السّفه أو قلة الأدب وإنما هو موقف الرجل المهذب الذى يحاول أن يوجد دائمًا السلام من المجتمع الذى يعمل فيه ، وعلى إيجاده فى النفوس بقوله وفعله ، فإذا تعرض له سفيه قابله بالحسنى ، فمعنى (قالوا سلامًا) أى قالوا خيرًا ، فيقابلون السّفه بالخير ، ولقد كان من صفات رسول الله ﷺ أن لاتزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا ، وموقف عباد الرحمن بعد ذلك إنما هو كما قال سبحانه : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارًا سآتيكُم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) .

وفى تفسير قول الله تعالى :

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنسَ من جانب الطور نارًا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلّى آتيكم منها بخبر أو جَذْوة مِن النار لعلكم تَصْطلون)[١٢٤]

* * *

قال تعالى : (إنى آنست نارًا سآتيكم منها بخبر) . . إلخ .

وقال تعالى : (إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بخبر) . . إلخ .

---

(١٢٣) سورة النمل – آية (٧) .

(١٢٤) سورة القصص – آية (٢٩) .

فى الآية الأولى الإخبار بأنه سياتى منها بخبر أو بقطعة ليستدفئوا بها . وفى الآية الثانية : يرجو أن يقف على خبر هذه النار ، أو أن يحصل على قطعة ليستدفئوا بها ويقضوا منها وطرهم . والخبر والرجاء يختلفان منطوقًا ومفهومًا ، ويتفقان غاية ، ولاتعارض بين منطوق الآيتين ومفهوم كل منهما ، لأن موسى عليه السلام لما رأى النار قال سآتيكم منها بخبر ، وهو يرجو فى نفسه أن يوفقه الله لما يريده .

« وهكذا شأن الأنبياء ومن أعدوا فى سابق الأزل للرسالات ، بل شأن العقلاء لايعولون على أنفسهم فى أى أمر يقصدون إليه ، بل يعولون على الله فى كل مطلوب »

فإحدى الآيات تعبر عمّا فى قلبه من رجاء معونة الله ، والأخرى تعبر عن حديثه لأهله مطمئنا لله .

فى تفسير قوله تعالى :

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)[١٢٥]

* * *

عدها البعض آية مستقلة من سورة الفاتحة ، وعلى ذلك فلابد من الإتيان بها فى الصلاة ، كما ذهب الى ذلك الشافعى رضى الله عنه ، حسب روايته فى تلاوة كتاب الله تعالى .

كما ورد فى العدد المكى والكوفى ، وحجته فى ذلك مع الرواية وجود البسملة أول كل سورة ماعدا براءة مع اجتهاد الصحابة فى تخلية كتاب الله تعالى عما ليس منه . فلو لم تكن البسملة من الفاتحة ماأثبتوها .

وذهب بعض الأئمة إلى أن البسملة ليست آية من الفاتحة ، وعلى ذلك لا تبطل الصلاة بتركها ، مادام قد اختلف فيها ، فبأى الرأيين أخذت فصلاتك صحيحة ، غير أن الأخذ بتلاوة البسملة فى كل فاتحة فى الصلاة أولى للحيطة .

فى تفسير قوله تعالى :

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)[١٢٦] .

* * *

---

(١٢٥) سورة النمل - آية (٣٠) .

(١٢٦) سورة السجدة - آية (١٣) .

حينما طرد الله سبحانه وتعالى إبليس من الجنة أقسم إبليس أن يكرس حياته لإغراء المخلوقات من الإنس والجن قائلا : فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين .

وقد وضح الله سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين لا يتأتى أن يكون للشيطان عليهم من سبيل قائلا :

« فالحق والحق أقول : لأملان جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » وفى هذه الآيات التى ذكرناها بيان للمقصود من الآية التى تحدث عنها السائل الفاضل والجنة : هم الجن ، وسموا جنًّا لاستتارهم عن الأنظار من الجَنّ وهو الستر :

قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)

وكلمة الجن ، وكلمة العفاريت ، وكلمة الشياطين كلها بمعنى واحد ، ولا يدخل النار إلا الكفار والعصاة من الجن والإنس .

أما المؤمنون والطائعون ، فيدخلون الجنة ، سواء كانوا من الجن ، أو من الناس ، لأن الجن منهم المؤمنون ومنهم غير المؤمنين ، قال تعالى فى سورة الجن :

(وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا) .

فى هل وضع القرآن الكريم قواعد إذا اتبعها الأثرياء أرضوا الله ورسوله ؟

« نعم وضع القرآن هذه القواعد وحث عليها بشتى الوسائل ، وقد جمعت هذه القواعد فى ألفاظ قليلة فى قصة قارون) .

* * *

لقد كان قارون من قوم موسى آتاه الله ثراء عريضا ورزق من المال مالا يكاد يحصى ، واتخذ قارون المال سبيلا إلى الملاذ والشهوات ، شهوات الجاه وشهوات الترف ، وشهوات النعيم الحسى بكل أنواعه ، لقد أسرف قارون فى انغماسه فى الملذات ، وكان يخرج على قومه فى زينته وفى كبريائه وغروره لا يعطف على ضعيف ولا يساعد فقيرا ولايعين ذا حاجة ، وليس للرحمة إلى قلبه من سبيل .

ولما رأى قومه ذلك اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يسدوا إليه النصيحة ، فلما اجتمعوا به تلطفوا فى القول ما استطاعوا وأجملوا النصيحة فى خمس قواعد هى فى الواقع القانون

العام لما ينبغى أن يكون عليه الأثرياء ، وهى الطابع الذى يجب أن يكون عليه أهل الغنى قالوا له :

إنك مباه بثروتك فخور بها ، فرح بالمال لذاته ، وما ينبغى أن يكون الفرح بالمال إلا لأنه وسيلة إلى النفع ، فلا تفرح بكثرة المال فرح بطر وكبرياء وفخر ، إن الله لا يحب الفرحين الذين يتمثل فيهم ذلك .

وقد آتاك الله الكثير فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، واجعل زكاة مالك مساعدة الفقير ، وزكاة قوتك نصر الضعيف ، وزكاة جاهك نصرة المظلوم .

والدنيا مزرعة الآخرة وطريقها فلا تنس نصيبك من الخطوات فى هذا الطريق بالعمل الصالح واكتساب رضاء الله قبل القدوم عليه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأحسن كما أحسن الله إليك : أحسن إلى نفسك بأن تتقى الله فى كل ما تأتى وما تدع . وأحسن إلى الآخرين وما الإحسان إلى الآخرين إلا إحسان إلى النفس لأنه تزكية لها ، والصدقة تطهر النفس وتزكيها .

(ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) فماذا كان وقع هذه النصائح عند قارون ؟ هذه المبادئ السامية ، التى إذا عممتها كانت الدستور لكل صاحب جاه أو نعمة .

لم تلق أذنًا مصغية لدى قارون الذى ألهاه التكاثر فقال ساخرًا متحديًا لا يبالى : (إنما أوتيته على علم عندى) فماذا كان الجزاء الإلهى على ذلك ؟

كان ما عبر الله عنه بقوله :

(فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سُجَّدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون[١٢٧] .

* * *

إن من المظاهر الصادقة للإيمان بآيات الله التى عبر عنها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أنه حينما يسمعها المؤمن على لسان قارئ أو على لسان واعظ ، حينما يذكر بها على أى وضع من

(١٢٧) سورة السجدة – آية (١٥) .

الأوضاع ، فإنها تلمس فى نفسه سر الله فيه وتؤثر على مركز النور والصفاء فى روحه ، وذلك لما بينها وبين الإيمان الصادق من صلة ، فإنها تعبر عنه وتشرحه موضحة ومرشدة وموجهة .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون) .

ومقياس الإيمان الصادق إذن إنما هو الاستجابة الكاملة لآيات الله ، الاستجابة المقرونة بتعظيم الله سبحانه عن طريق حمده والثناء عليه ، الاستجابة التى يعبر عنها المعنى العميق للخضوع لما أمر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه ، وهذا هو المعنى الحقيقى للسجود ، وهذا هو ما يراد من وراء هذه الكيفية المخصوصة من وضع الجبهة على الأرض خضوعًا وتواضعًا وخشية .

والسجود يعبر عن منتهى الخضوع والخشية ، ومن أجل ذلك يقول رسول الله ﷺ : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

ومن أجل هذا القرب يحث رسول الله ﷺ على الدعاء فى أثناء السجود ، لأن القرب مظنة الاستجابة ويقول الله سبحانه وتعالى : (واسجد واقترب) .

أى اقترب من الله عن طريق السجود إليه .

وجوهر السجود فى حديث رسول الله ﷺ وفى الآية الكريمة إنما هو : الاستجابة فى كل أمر بما يناسبه ويتفق والأوضاع والشروط المطلوبة .

والله سبحانه حين أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام كانت استجابتهم فورية ولم يستجب إبليس ويفسر عدم استجابته بالكبرياء المتغلغل فى نفسه ، ومن أجل ذلك وصف الله المؤمنين فى الآية التى نحن بصددها بأنهم لا يستكبرون .

إن التواضع لله سبحانه وخشيته والاستجابة إليه مقياس الإيمان الصادق ، وليس ذلك كلامًا يقال ولا ألفاظًا تنمق ، وإنما يظهر فى صور محددة منها : أن المؤمنين الصادقين (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، إنهم المتهجدون بالليل ، (يدعون ربهم خوفًا وطمعًا) ، ومن صفاتهم أنهم يشكرون الله بالإنفاق مما رزقهم ، إنهم يشكرونه على القوة بالإنفاق منها فى مساعدة الضعفاء ، وعلى الجاه بالإنفاق منه فى مساعدة من لاجاه لهم ، وعلى الثراء بالتصدق ، والصدقة برهان ، ويشكرونه على العلم بتعليم الآخرين ، إنهم يخرجون زكاة كل نعمة أنعم الله تعالى عليهم ، والله سبحانه وتعالى يتحدث عن عاقبة أمرهم وعما ادخره لهم فيقول سبحانه : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

فى فضل سورة (يس) :

روى الإمام أحمد والحاكم وصححه معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قلب القرآن (يس) لايقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له . اقرءوها على موتاكم .

وكلمة اقرءوها على موتاكم « كلمة مطلقة فهى تفيد اقرءوها على من كان فى حالة الاحتضار ، وتفيد اقرءوها على موتاكم فى المقابر ، ويساند هذا ماذكره الثعلبى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات .

ومذهب الجمهور من أهل السنة أن ثواب قراءة القرآن يصلَ إلى المتوفى ، بل لقد ذكر ابن قدامة فى كتابه (المغنى) أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل قال :

الميت يصل إليه كل شىء من الخير ، للنصوص الواردة فى ذلك ، ولأن المسلمين يجتمعون فى كل عصر ويقرءون ويهدون لموتاهم من غير نكير ، فكان إجماع .

فإذا ماقرأ إنسان القرآن بنية إهداء الثواب إلى الميت فإنه يقول : بعد الفراغ من القراءة « اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان »

على أن الجمهور من أهل السنة يعلن فى صراحة أن القراءة التى يصل ثوابها إلى الميت إنما هى القراءة التى ليست مأجورة ، ويعلن فى صراحة أيضًا أنه لابد من النية التى تتقدم القراءة .

وقراءة القرآن على الميت لاتتقدر بزمن بعد الوفاة . فلا تتقيد بمرور سبعة أيام أو أكثر أو أقل ، وما من شك فى أنه من الخير أن يُقرأ القرآن عند الميت فى حالة الاحتضار ، وأن يُقرأ بعد وفاته مباشرة ، وأن يُقرأ له بعد ذلك كلما تتاح الفرصة ، وليس فى الإسلام مطلقًا مايدل على أن القراءة تكون بعد سبعة أيام .

فى قوله تعالى :

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحُون)(١٢٨)

* * *

الأغلال جمع غُلّ بضم الغين ، وهو ماأحاط بالعنق ومع العنق اليدان ، واليد الواحدة للتعذيب .

---

(١٢٨) سورة (يس) آيتا (٧ ، ٨) .

مقمحون : رافعو رءوسهم غاضو أبصارهم لا يتمكنون من تحريك رءوسهم إلى اليمين أو الشمال .

ومعنى الآية : إن هؤلاء المعرضين عن الدعوة الذين صموا آذانهم عن سماعها ، وحجزوا عقولهم عن التدبر فيها ، أو محاولة فهم ما ترمى إليه ، مثلهم كمثل من قيدت يده إلى عنقه بغل ثقيل يمنعه من التحرك ببصره إلى مافيه نفعه .

فتصميمهم على الكفر يشبه الأغلال ، واستكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه يشبه الإقماح ، إذ إنهم لايتمكنون من خفض رءوسهم وهم مقمحون ، وكذلك لايتمكنون من التواضع لاستماع الدعوة وهم مستكبرون .

وهذا التشبيه فى الدنيا يتحول فى الآخرة إلى حقيقة واقعة . . . فتظهر الأغلال الثقيلة ، ويتعذب المعرضون على هذه الصورة المرهقة من العذاب .

فى قول الله تعالى :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفُجّار)(١٢٩)

* * *

ذكر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة علامتين للأخيار تتضمن كل علامة منهما الكثير من الصفات .

أما العلامة الأولى – وهى الإيمان – فهى أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وكل شخص لاإيمان له فإنه لايتأتى أن يكون من الأخيار . . فأساس صفة الخير فى الرجل إنما هى الإيمان ، ولكن الإيمان بدون العمل الصالح لايجعل الإنسان خيّرًا ، بل إنه يكون بلا إيمان ، لابد إذن ليكون الإنسان خيِّراً بالعمل الصالح .

والصورة الثانية الصادقة للعمل الصالح هى أن يسلم الإنسان وجهه لله إسلامًا تامًّا ، أى أن يحقق الإنسان معنى كلمة إسلام . . وتحقيق معنى كلمة إسلام يبدأ أول مايبدأ بالتوبة الخالصة الصادقة النصوح ، ثم الأمانة الشاملة العامة .

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه لا إيمان لمن لاأمانة له . والأمانة الشاملة هى أمانة الإنسان على نفسه ، فلا يدنسها برجس ، وأمانته بالنسبة لوطنه فلا يغش ولايخون ، وأمانته بالنسبة لله

(١٢٩) سورة ص – آية (٢٨) .

سبحانه وتعالى . . يأتمر بما أمر وينتهى بما نهى ، ولن يكون إسلام الوجه لله كاملا إلا إذا تخلق الإنسان بالرحمة التى هى طابع الدين الإسلامى وغايته التى يقول الله سبحانه وتعالى عنها لرسوله ﷺ : (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

هذه هى الخطوط الكبرى لصفات الأخيار . . أما المفسدون فإنهم الذين لا إيمان لهم ولم يعملوا الصالحات ، إنهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا ، أعداء الوطن ، وأعداء الله ، ولن يجعلهم الله فى الدنيا ولافى الآخرة كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فى معنى قوله تعالى :

(إنّك ميت وإنّهم ميتون ، ثم إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون)[١٣٠] .

* * *

هاتان آيتان من سورة الزمر ، ومعناهما كما حكاه المفسرون : أن الله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه ﷺ بعد أن دعا قومه إلى التوحيد واستفرغ جهده فى دعوتهم .

أنكم ستنتقلون من هذه الدار لامحالة ، فليست بدار بقاء لأنها فانية كما قال الله تعالى : (كل مَن عليها فان) فأنت يا محمد وهم ستموتون وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله تعالى فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتّاح العليم ، فينجى المخلصين المؤمنين الموحدين الذين عبدوه وحده ، ولم يشركوا فى عبادته غيره ، وعملوا الصالحات التى تنفعهم .

وأما الكافرون فإنهم يجازون على كفرهم وشركهم وعدم إيمانهم بالعذاب الأليم ، وهذه الآية وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ، فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، وإنه ستعاد الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ويقضى بينهم الحكم بالعدل ، وهم أحكم الحاكمين ، ويجازى كُلاًّ بما يستحق . روى الترمذى : عن الزبير رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية قال أيكرر علينا ماكان بيننا فى الدنيا يا رسول الله ؟ قال ﷺ « نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقّه . وقال الزبير : والله إنّ الأمر لشديد .

---

(١٣٠) سورة الزمر - آيتا (٣٠ ، ٣١) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنّه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له . .)[١٣١]

* * *

فهذه الآية الكريمة تدعو كل مذنب إلى التوبة ، إنها لاتستثنى أحدًا وتأمر أن لا يقنط المسلم من رحمة الله ولو أسرف على نفسه بكثرة الذنوب وبكثرة المعاصى .

على أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة كل ذلك قد تضافر على وجوب التسوية ، يقول الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعًا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ومن المعروف فى الجو الإسلامى أن التوبة الخالصة النصوح تَجُبُّ ماقبلها ، وأنها تعطى الإنسان شهادة البراءة .

والتوبة التى من هذا النمط ليست كلمة تقال فحسب ، أو لفظة تنتهى بانتهاء اللسان من قولها ، ولكن التوبة ، إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لاتتعلق بحق آدمى ، لها ثلاثة شروط .

الأول : أن يقلع المذنب عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فلها شرط رابع ، وهو أن يرد التائب الحقوق بقدر الاستطاعة ، فإذا فقد شرط من هذه الشروط فلا تصح التوبة والأمر فيمن جمع مالا كثيرًا عن طريق غير شرعى وأراد أن يكفر الله عن سيئاته واضح ، فلابد من التوبة الخالصة النصوح ، والمحققة للشروط التى سبق أن ذكرناها .

فى تفسير قوله تعالى :

(ومَن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين)[١٣٢] .

---

(١٣١) سورة الزمر - آيتا (٥٣ ، ٥٤) .

(١٣٢) سورة فصلت - آية (٣٣) .

وقال ﷺ : نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها فأدّاها كما سمعها ، فربّ مبلّغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . وربّ حامل فقه ليس بفقيه . وقال : بلغوا عنى ولو آية .

والدعوة إلى الله عن أى طريق مطلوبة ومثاب عليها ، ففيها تعليم وإرشاد لمن لايعلم . . وفيها تذكير لمن يعلم ، قال تعالى : (وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ولما اتسع المجال للدعوة وتحققت لها وسائل الانتشار فى أوسع حيز ممكن كان الثواب أجزل والخير أوفر . . إذ كل من يسمع صوت الدعوة الصالحة والإرشاد السليم يشهد لصاحبها بالعمل الصالح يوم القيامة . . وله ثواب كل من استفاد فائدة أو عمل عملا صالحًا .

قال ﷺ : من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه إثم من عمل بها من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا .

ولايضر الدعوة إلى الله بالراديو أو غيره من وسائل الإعلام ، أن تذيع هذه الوسائل حكايات أو قصصا غرامية .

إن هذه الوسائل الإعلامية تصوير للحياة بكل ألوانها . ومن الممكن للمستمع أن يختار منها مايشاء وعليه تقع مسئولية هذا الاختيار .

أما عن وجوب التزام هذه الوسائل الإعلامية لطريق الجادة باعتبارها مراكز توصية ومنارات هدى فهذا ماينبغى أن يكون . وعلى المسلم أن يتخير منها مايتفق وتعاليم دينه وهديه (من عمل صالحًا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وماربك بظلاّم للعبيد) .

فى تفسير قوله تعالى :

(لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون)

(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون[١٣٣]) .

* * *

وبالتالى هل يصح السجود على أيدى المشايخ أو الوالد أو أى شخص بقصد التبرك ؟

قال الله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانًا) وقال تعالى : (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا) فعبادة غير الله كفر بالله ، لأنها تأليه للمعبود ، وشرك بالله ، وفى تلك الآية التى نجيب السائل عنها أن العبادة لاتنبغى لغير الله ، وعبر بالسجود عن العبادة لأنه أبرز مايكون فيها ، والسجود بعض العبادة ، فإن أبى أحد إلا السجود لغير الله وعبادته فالله عز وجل

(١٣٣) سورة فُصّلت - آيتا (٣٧ ، ٣٨) .

غنى عنه وعن عبادته ، لأنه لديه من ملائكته وعباده الصالحين مَنْ لايستكبرون عن عبادته ويسبحون له بالليل والنهار وهم ، لا يملّون ذلك أبدًا .

والسجود الذى هو وضع الجبهة على الأرض لايجوز لأى شخص من الأشخاص ؛ سواء أكان أبًا أم شيخًا ، ولايجوز للأب ولاللشيخ أن يسمح لابنه أو تلميذه بذلك أما تقبيل يد الشيخ عند السلام عليه استحبابًا إن كان الشيخ من ذوى الصلاح والتقى وترجى بركته - فذلك جائز ، لأن التقبيل حينئذ تعبير عن الإجلال والاحترام والتوقير ، وإقرار بالفضل لذويه وفى تقبيل حامل قطف العنب بالطائف ليدى رسول الله ﷺ ورجليه حينما قال له رسول الله ﷺ من أى البلاد أنت ؟ قال : من نينوى فقال له النبى ﷺ : بلد الرجل الصالح يونس بن متى ، قال العبد : من أنبأك به قال إنه نبىّ فأكب على يدى رسول الله ﷺ ورجليه يقبلها .

ونخرج من ذلك من أن السجود بمعناه الحقيقى لايجوز للمخلوق أما تقبيل اليد احترامًا وإجلالا فإنه جائز ،

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)[١٣٤] .

* * *

الأخ المسلم لايخذل أخاه ولايسلمه ولايظلمه .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : المسلم أخو المسلم . . .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال :

قال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (متفق عليه) .

ولقد أنزل الله سبحانه فى هذا الأمر ومثله قرانًا يتلى فى سورة الممتحنة فقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) .

وقال فى آخر السورة : (يأيها الذين آمنوا لاتتولّوا قومًا غضب الله عليهم) .

وقال سبحانه : (يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) .

وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) .

---

(١٣٤) سورة الحجرات - آية (١٠) .

من تلك النصوص المجتمعة من الكتاب والسنة نفهم أن المسلم لايناصر كافرًا على مسلم بالقتال أو غيره ، فإن فعل ذلك فقد باء بإثمه وكان مع صاحبه فى النار قال ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

بل إن صلة الإسلام أولى بالرعاية والنصرة من صلة الرحم .

ومما أسلفنا نفهم أنه تجب نصرة المسلم على الكافر مالم يكن فى نصرته معصية لله تعالى ، ومناصرة غير المسلم على المسلم معصية لله ولرسوله يجب الكف عنها .

فى قول الله سبحانه وتعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا) ثم يعلل سبحانه هذه الوصية فيقول :

(حملته أمه كُرْهًا ووضعته كُرهًا ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً)[١٣٥] .

* * *

فإذا كان الابن خيّرًا مرضيًا لله ، ومرضيًا عنه من الله ، فإن الله يبين موقفه فى الآية نفسها متابعًا كلامه سبحانه فيقول : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تُبت إليك وإنى من المسلمين) .

ثم يبين الله سبحانه موقفه من مثل هذا الصالح فيقول :

(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعْد الصدق الذى كانوا يُوعدون) .

ومن هذا القبيل قوله سبحانه وتعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهْنٍ وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير)[١٣٦] ولقد بين الله سبحانه الموقف الكريم ، والآداب التى يجب أن يتحلى بها الابن بالنسبة لوالديه فقال سبحانه : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانًا ، إما يبلغن عندك الكِبَر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولاتنهرهما ، وقل لهما قولا كريمًا ، واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

ولقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال سألت النبى ﷺ : أى العمل

---

(١٣٥) سورة الأحقاف - آية (١٥) .

(١٣٦) سورة لقمان - آية (١٤) .

أحب إلى الله ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال برّ الوالدين ، قلت ثم أى ، قال الجهاد فى سبيل الله .

فعلى الابن أن يبادر باسترضاء والده حتى يعفو الله عنه ، وإلافهو عاصٍ بمعصية هى من الكبائر ، وإذا استمرّ فى موقفه فيمكن للأب أن يرفع أمره للقضاء ليحكم له بما يجزى من مال ابنه الموسر .

فى تفسير آيات من سورة الحجرات :

(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدَىِ الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)(١٣٧)

* * *

هذه الآيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام ، والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى لاتسرعوا فى الأشياء بين يديه أى – قبله – بل كانوا تبعًا له فى جميع الأمور حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديث معاذ رضى الله عنه حيث قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله تعالى : قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال : بسُنّة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد برأيى ، فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ .

وقد رواه أحمد وأبوداود والترمذى وابن ماجه . فالغرض منه أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى مابعد الكتاب والسنّة ولو قدّمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) لاتقولوا خلاف الكتاب والسنة .

وقال الضحاك : لاتقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثورى : ولاتقدموا بين يدى الله ورسوله بقول ولافعل ، وقوله تعالى : (يأيها الذين امنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) .

---

(١٣٧) سورة الحجرات – الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ فوق صوته . .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا أزهر بن سعد ، أخبرنا ابن عون ، أنبأنى موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ - افتقد ثابت بن قيس رضى الله عنه ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده فى بيته منكسًا رأسه ، فقال : له : ماشأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ ، فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا » قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : اذهب اليه فقل له . . إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة .

وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) إلى قوله (وأنتم لاتشعرون) . وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار حبط عملى ، وجلس فى أهله حزينًا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ، مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبى ﷺ : لا ، بل هو من أهل الجنة ، قال أنس رضى الله عنه ، فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه فقال بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه .

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ﷺ ، قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال من أين أنتما قالا : من أهل الطائف . . فقال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا - وقال العلماء يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره فى حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيًّا وفى قبره ﷺ دائمًا . .

فى قول الله تعالى :

(يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عليم خبير)(١٣٨)

* * *

إن الله سبحانه فى حكمته السامية ماجعل الناس شعوبًا وقبائل ليتدابروا ويتنافروا ، فإن الإسلام قد نهى عن التدابر والتنافر ، وأمر بالتعاطف والتراحم حيث قال ﷺ لاتقاطعوا ولاتدابروا ولاتباغضوا ولاتحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، وأمرهم أن يعملوا جاهدين لتحقيق الخير من أجل الإنسانية حتى يثيبهم عليه تزكية نفس وصفاء روح وأمنًا وطمأنينة والتجاء إلى الله شكرًا وعرفاناً فتكون التقوى ، فيصل الإنسان إلى أن يكون كريمًا عند الله ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، فإذا ماكان الفرد كريمًا على الله فإن الله لايسلمه ولايخذله ، ومن يثق بالله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وإذا كان المجتمع كريمًا على الله بالتقوى فإن الله سبحانه يكون عونه وناصره وكفى بربك هاديًا ونصيرًا للفرد ، وهادياً ونصيرًا للمجتمع ، ويتحقق السلام للفرد وللإنسانية تحققًا كاملا باتباعهم الرحمة والأخوة والتعارف ، أو بتعبير أقصر بإسلامهم ، لأن الإسلام إنما هو أن يسلم الإنسان وجهه لله ، يسلمه له إسلامًا كاملا لاشائبة فيه من تعصب بيئى أو عنصرى ، قال ﷺ فيما رواه أبو داود « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية والإسلام ليس فيه تعصب ولاافتخار بالآباء والأجداد يقول ﷺ فى حجة الوداع . « إنّ الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد – الناس لآدم وآدم من تراب ، ولافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقال ﷺ لرجل قال لصاحبه يابن السوداء : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ويجب أن يكون إسلامًا صافيًا كاملا حتى تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لاشريك له ، فإذا ما أسلم وجهه هذا الإسلام كان رحمة وكان تعاطفًا ، وكانت صلته بالشعوب والقبائل صلة تعارف لاصلة تنافر ولاتعادى ولاتدابر ، وصلة الإسلام إذن بالسلام الفردى والسلام العالمى على هذا الوضع صلة واضحة .

إن الإسلام هو الموصل للسلام العالمى ، يقول الله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم

(١٣٨) سورة الحجرات – آية (١٣) .

إلى صراط مستقيم) فكتاب الله سبحانه هو الذى يرسم السلام ويرسم سبل السلام ، وهو سبحانه إذا فعل ذلك فإنما يفعله على علم ويفعله على حكمة ، والله سبحانه يأمر المؤمنين جميعًا أن يدخلوا فى الإسلام كافة (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وعدم الدخول فى السلم إنما هو اتباع خطوات الشيطان .

فى معنى قوله تعالى :

(إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لايمسّه إلا المطهرون) (١٣٩)

* * *

القرآن نور أنار الله به طريق السير للمؤمنين ومنّة امتن بها عليهم . وطالبهم باحترامه والقيام بحقوقه ، وحذرهم من التفريط فى احترامه فضلا عن امتهانه .

والذى يبيع بعض الحاجات فى ورقة بها آية أو آيات قرآنية مرتكب لمنكر ، والذى يبيع من الورق مافيه آية قرآنية لمن يبيع فيه ويمتهنه مرتكب لمنكر وهكذا .

ولايعتبر الامتهان غير مقصود إلا إذا غفل المسلم عنه ، أو ظن أن ما فى الورق ليس بقرآن .

فإذا مامزقت أوراق مصحف أو بعض أوراقه بادر الإنسان بحرقها إذا لم يتيسر له حفظها فى مكان آخر أو إلقائها فى البحر ، لأن الماء سيزيل آثار الكتاب وتتحول حينئذ إلى أوراق عادية سرعان ماتتآكل .

والمقصود من هذا كله ، المحافظة على القرآن الكريم والقيام بما يجب نحوه من احترام .

وإذا كان الله تعالى قد منع غير المتطهر من مس المصحف أو شىء من القرآن فإن امتهان القرآن من أكبر المحرمات . وقد كان سبب الوبال لبعض الأمراء الذين استهانوا بحرمته فمزقهم الله شرّ ممزق .

فى معنى هذه الآية :

(قد سمع الله قَوْل التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إنّ الله سميع بصير) (١٤٠) .

* * *

---

(١٣٩) سورة الواقعة ـ الآيات (٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩) .

(١٤٠) أول سورة المجادلة .

أولا : سبب نزولها :

روى أن خولة بنت ثعلبة ظَاهَر عنها زوجها أوْس بن الصامت فاستفتت رسول الله ﷺ فقال : حَرُمْتِ عليه ، فقالت : ماطلقنى ، فقال : حرمت عليه .

فاغتمّت لصغر أولادها ، وشكت إلى الله تعالى ، فنزلت هذه الآيات الأربع من سورة المجادلة وقد تشعر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام يتوقع أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ويفرج كربها .

ثانيا : المعنى :

قد سمع الله أى سمع الله شكوى المرأة التى تجادل وتكثر الأسئلة على الله عز وجلّ وكذلك الشكوى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما « أى تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب (إن الله سميع بصير) سامع للأقوال ، عارف مرماها ونتيجتها ومغزاها ، بصير بأحوالها وخبير . (من تفسير البيضاوى) .

فى قوله سبحانه فى سورة الممتحنة :

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)[١٤١] .

* * *

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة فى مناسبات تشبه مايسأل عنه السائل ، فقد أسلم كثير من القرشيين ولهم أقارب تختلف درجة قرابتهم قربًا وبعدًا ، ونشأت ظروف تساءل فيها المسلمون عما إذا كان يباح الاتصال بآبائهم أو أمهاتهم ، وعما إذا كان يباح لهم أن يبروا الأقارب بمختلف أنواع البر أو يتقبلوا برهم وهداياهم ، فنزلت الآيات الكريمة بالقانون الإلهى توضح الموقف : نسالم من سالمنا ونحارب من حاربنا وهو قانون طبيعى إنسانى . والإسلام يقف من المعادين لنا موقفًا حاسمًا ؟

(لا تَجـدُ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم

---

(١٤١) سورة الممتحنة – آيا (٨ ، ٩) .

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون)[١٤٢] .

من ذلك نتبين أن المسلم يؤاكل غير المسلم ويصافحه ويتعامل معه فى المباحثات من أنواع التعامل مادام السلام موجودًا بينهم ، أما فى حالة الحرب فلا يصح من ذلك إلا ماتقتضيه ضرورة الحرب .

فى معنى قول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون . كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)[١٤٣] .

فى هذه الآية الكريمة يسأل الله المؤمنين سؤالا استنكاريًا مؤنبًا لهم ، طالبًا منهم السبب فى أنهم يقولون بألسنتهم مالا يفعلونه بجوارحهم ، ويتحدثون إلى الناس عن الخير ولايفعلونه ، ثم يعرفهم منزلة هذا الذى يدعو إلى الخير ولايعمل به ، فيقول لهم كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون ، فكل من يدعو إلى خير ولا يعمل به ، ممقوت عند الله وملائكته والناس أجمعين .

خصوصًا هذا الذى يتكبر ولايصلى ، ذلك أن المتكبر لايحبه الله (إن الله لايحب كل مختال فخور) أما ترك الصلاة فإنه يصل بالإنسان إلى النفاق وإلى الكفر والعياذ بالله ، يقول أحد الصحابة « ... ولقد رأيتنا ومايتخلف عنها – أى عن الصلاة – إلا منافق . ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى به – أى يسنده الآخرون لمرضه حتى يقف فى الصف » .

والداعى إلى الإسلام دون أن يعيش إنما هو مثل سيئ إلى الدعوة الإسلامية ، وأن الدين الإسلامى إنما هو دين إخلاص وصفاء . لايعتد بمظاهر الخير مالم تكن صادرة من قلب طاهر (ألا لله الدين الخالص) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون)[١٤٤] .

* * *

---

(١٤٢) سورة المجادلة – آية (٢٢) .

(١٤٣) سورة الصف – آيتا (٢ ، ٣) .

(١٤٤) سورة المنافقون – آية (٨) .

العزة هى حالة مانعة للكائن الذى يتصف بها أن يغلب أو يقهر العزيز هو الذى يُقهِر ولايُقهَر . . . العزيز على وجه الإطلاق هو الله سبحانه ، إنه القهار الغالب لايجرى فى السماوات والأرض إلا مايريد .

إن العزة المطلقة له سبحانه ، وهذه العزة يفيض الله منها على المؤمنين به حسب درجة إيمانهم إنه سبحانه يمنحها لكل من سار على هداه سبحانه ملتزمًا تعاليمه بوحدانيته مؤتمرًا بما أمر ، منتهيًا بما نهى .

وأقوى المؤمنين إيمانًا إنما هم الرسول عليهم الصلاة والسلام ، ويتلوهم من آمن بهم على تفاوت فى الدرجة . والمثل الذى نريد أن نقدمه بيانًا وتوضيحًا هو مثل المسلمين الأول ، لقد آمنوا بالله إيمانًا وقر فى صدورهم وصدقه العمل ، فكانت لهم العزة والغلبة ، وإنها لقاعدة عامة للمسلمين لاتتخصص بمكان ولازمان بأنهم كلما كانوا أقوى إيمانًا كانوا أعز جانبًا (ولينصرن الله من ينصره) .

أما هذا الذى ينصرف عن الله مستسلمًا لشهواته فإن الله سبحانه يجعل منه بين الناس شيئًا تافهًا لايبالى به أحد ، إن الله سبحانه يهيئه بإنزال درجته فى المجتمع بما كسبت يداه ومن ينزل الله مكانته لايتأتى لكائن من كان أن يرفعها ، ولن ترفع إلا إذا رجع الشخص إلى الله مغيرًا سلوكه معه سبحانه ، إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . .

فى فضل من قرأ سورة الملك :

يقول رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لاأقول (الم) حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

ولسورة الملك ثواب خاص بها ، فضلا عن ثواب تلاوة القرآن الكريم ، وقدورد أنّ من داوم على قراءة هذه السورة كل ليلة كانت شافعة له فى قبره ومؤنسة لديه .

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان لا ينام كل ليلة حتى يقرأ سورتى السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك ، وهذا يشعر بمنزلة هاتين السورتين وعظم فضلها .

وفى سورة الملك بالذات ورد الحديثان التاليان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفر له وهى) : (تبارك الذى بيده الملك) رواه أبو داود والترمذى وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« وددت أنها فى قلب كل مؤمن – يعنى تبارك الذى بيده الملك » .

رواه الحاكم .

فى تفسير قوله تعالى :

(قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدًا ، عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا)[١٤٥] .

* * *

رأى بعض العلماء فى هذه الآية أنه لا يطلع على بعض الأمور الغيبية إلا من اصطفاه الله لرسالته ، وأن غير الرسل لا يطّلعون على شىء من الغيب ، ورأى البعض الآخر أن المراد بالإظهار على الغيب وتعريفه انكشافه انكشافًا تامًّا لالبس فيه ، وذلك مختص بالرسل إما على وجه المعجزة أو على وجه بيان تفاصيل الشريعة التى أمروا بتبليغها .

ويرى هؤلاء العلماء أن اختصاص الرسل بالاطلاع على بعض الأمور الغيبية على ماهى عليه وفى أعلى مراتب الإدراك والمعرفة لاينفى اطلاع غيرهم على شىء من الغيب على صورة أدنى من الصورة التى يدرك بها الرسل الأمور الغيبية ، فالغيب يتكشف للرسل بالوحى الصريح ، ولاينكشف لولى شىء عن هذا الطريق .

قال التفتى : والولى إذا أخبر بشىء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه خبر بناء على رؤياه أو بالفراسة على أن كل كرامة للولى هى معجزة للرسل .

وقد روى ابن جرير والترمذى وغيرهما فى تفسير قوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

ويرى بعض العلماء أن المراد بالغيب الذى اختص الله بعلمه ولا يُطلع عليه أحداً من خلقه إنما يتمثل فى مثل قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى الأمور التى تتعلق بالرزق أو الأجل أو قيام الساعة ونحوها وما يتصل بتنظيم الله تعالى .

وعلى كل فلم يرد ما يمنع صراحة من اطلاع بعض الصالحين على أمور من الغيب تثبيتاً لهم ، وتقوية ليقينهم ، ومعجزة لنبيهم لأن كل كرامة لولى معجزة للنبى الذى يتبعه .

---

(١٤٥) سورة الجن – الآيات (٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧) .

فى قوله تعالى : (عبس وتولى . .) إلخ .

* * *

أى شعر بالحرج والضيق حينما دخل عليه الأعمى وهو يدعو بعض رؤساء الكفر إلى الإسلام ، فخاف أن يقطع دخول هذا الأعمى حديث الدعوة إلى الله تعالى ويضيع ما يمكن أن يكون قد علق بقلب هذا الكافر منه .

ولم يكن إعراضه ﷺ عن الأعمى أو ضيقه به تحقيراً له أو توهيناً لشأنه وإنما كان تقديماً للأهم على المهم ، فجلوس رئيس من رؤساء الشرك لسماع الدعوة وتقبله لما يلقى عليه فرصة قد لا تعوض ، وقد يسلم فيسلم بإسلامه كثيرون ، أما هذا الأعمى فالفرص أمامه كثيرة ولقاء الرسول ﷺ متيسر له متى شاء .

قال ابن حزم : أما قوله تعالى : (عبس وتولى . .) الآيات . . فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش ورجا إسلامه ، وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين ، وعلم أن هذا الأعمى الذى يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه ، فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير عما لا يخاف فوته ، وهذا غاية النظر فى الدين والاجتهاد فى نصرة القرآن ، فى ظاهرها الأمر ونهاية التقرب إلى الله الذى لو فعله اليوم بنا فاعل لأجر لعاقبه الله عز وجل على ذلك ، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل التقى .

وكأن الله سبحانه وتعالى بهذا يوجه إلى فضل المؤمن على غيره من الكفار مهما كانت الفروق الدنيوية من المال والجاه ونحوهما ، والآية الكريمة تبين شدة حرص الرسول ﷺ على الدعوة إلى الله سبحانه ، ونبين من جانب آخر قيمة المؤمن عند الله وفضله على غيره من أهل الشرك والضلال .

فى قصة أصحاب الأخدود المذكورة من سورة البروج :

إن هذه الآيات الكريمة من سورة البروج وقد نزلت هذه السورة الكريمة لتبين أن المؤمن يؤدى رسالة ، وأن مثله فى هذه الحياة الدنيا مثل أصحاب الرسالات الذين يجاهدون فى سبيل الله ، فيصادفون فى ذلك مصادفة المعارضين وكيدهم ومكرهم وتعذيبهم ، ومادام الإيمان يملأ القلب فإن المؤمن يصبر على كل ذلك مجاهداً إلى النهاية فينال النصر أو الشهادة ويضرب الله مثلا للمؤمنين

بأصحاب الأخدود ، والأخدود الحفرة المستطيلة فى الأرض ، وأصحاب الأخدود هم الذين حفروا هذه الحفرة المستطيلة وأوقدوا فيها النار مشتعلة متأججة وأتوا بالمؤمنين الذين لم يفعلوا جريمة ولم يرتكبوا أى ذنب إنما كان كل ما يأخذونه عليهم إنما هو أنهم آمنو بالله العزيز الحميد . ولقد عذبوهم بسبب إيمانهم وألقوا بهم فى النار بسبب إيمانهم ، وقد استمسك هؤلاء المؤمنون بإيمانهم لم يحيدوا عنه قيد شعرة . وجلس الطغاة على حافة النار ينظرون فى نوع من التسلية إلى هؤلاء المؤمنين الذين يقذف بهم فى النار واحد بعد واحد دون أن تنبض قلوب الطغاة برأفة أو برحمة .

وهذه القصة كانت بين اليهود ونصارى نجران ، فقد تآمر اليهود على نصارى نجران ودبروا المكيدة لهم فاستولوا على المدينة ، وحفروا الأخدود وألقوا النصارى واحداً بعد الآخر فى الحفرة التى حفروها ، وكانت جريمة بشعة تضاف إلى جرائم اليهود التى لا حصر لها عبر التاريخ ، قاتلهم الله . إن لهم أثراً سيئاً فى كل مكان يحلون به وإن لهم لجريمة فى كل أرض يمسون ترابها ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمهلهم كثيراً فى نشوة انتصارهم ، وعبر عن ذلك بقوله تعالى : (قُتل أصحاب الأخدود) أى أن الله سبحانه وتعالى أهلك هؤلاء اليهود ودمرهم بجريمتهم ، ولقد كان هذا الشأن شأن الله سبحانه وتعالى دائماً معهم ، فإنهم بنص القرآن كلما أوقدوا ناراً للحرب متمشين فى ذلك مع طبيعتهم – أطفأها الله وخذلهم شرّ خذلان . .

فى تفسير قول الله تعالى :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره)[١٤٦] .

* * *

وكل إنسان مجزى يوم القيامة بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر هذه هى القاعدة الإسلامية ، قاعدة العدالة والجزاء على ما قدم الإنسان من عمل ، والصالحون دائماً بين الخوف والرجاء ، وهما شعار المؤمن التقى ، ولقد قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وهو من هو فضلا وتقوى ، وصلاحاً ، إنابة إلى الله ورجوعاً إليه ، لقد قال : « والله لا آمن من مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » .

بيد أن فضل الله وكرمه ورحمته لا يحدها حد ولا يقيدها قيد ، مشيئته مطلقة ، فإذا ما شاء عفا وغفر وهو الغفور الرحيم ، ومن أجل ذلك وردت نصوص تبعث فى النفس الرجاء وتذهب اليأس والقنوط ، منها الحديث التالى ، وهو حديث صحيح ، قال رسول الله ﷺ :

(١٤٦) سورة الزلزلة – آيتا (٧ ، ٨) .

« إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق » ومنها قوله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة » وكان أبو ذرّ رضى الله عنه يسمع هذا الحديث من فم رسول الله ﷺ فقال سائلا رسول الله ﷺ : وإن زنى ، وإن سرق يا رسول الله ؟ فأجاب ﷺ : وإن زنى وإن سرق ، وكرر أبو ذرّ السؤال فكرر رسول الله ﷺ الإجابة وقال : فى المرة الأخيرة برغم أنف أبى ذرّ . على أن هذا الحديث نفسه حينما يلاحظ الإنسان قوله ﷺ : (خالصاً من قلبه) يعلم أن من قال لا إله إلا الله وتحقق إخلاص القلب بهذه الكلمة التى تزن الأرض والسماء فترجح فإنه لا يزنى ولا يسرق ولو فرضنا أنه أثِمَ ، فإنه يرجع إلى الله مباشرة بالتوبة الخالصة النصوح . والتوبة الخالصة النصوح تجبّ ما قبلها . .